سلسلة قسيفساء

محمد ديب

غريبة الثلج و الرمال

رواية

مكتبة نوميديا 192

Telegram@Numidia_Library

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
بمناسبة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

غريبة الثلج و الرمال

Mohammed Dib

L'infante maure

Roman

© Albin Michel, 1994

محمد ديب

غريبة الثلج و الرمال

رواية

ترجمة : عبد الرزاق عبيد

سيديا

© 2011، جميع الحقوق محفوظة للغة العربية لدار سيديا في العالم العربي.
ردمك : 978-9947-872-51-2

I

الوريثة بين الأشجار

اليوم يوم أحد. كيف عرفت ذلك؟ كل شيء يوحي بأننا في عطلة، الدّار، ونحن وكل الأشياء. وإلاّ فأيّ صباح آخر يمكن أن يقع فيه مثل هذا السكون، أيّ صباح آخر يبقى هكذا دون أن يدق فيه دقات صغيرة بمطرقته؟ لا يوجد غير شخص واحد. هو وحده الذي يمكن أن يكون صاحيا صاخبا في كل هذا السكون. فهو يتظاهر بالنوم دون أن يكون نائما. وحتى النور من حوله، فهو نور في عطلة. والسماء بلونها الأزرق الشديد اللمعان كما لو كانت قد تعرضت لغسيل كبير، هي أيضا في عطلة. إنه ينظر إليّ عبر النافذة بعين طفل استيقظ لتوّه، ولكنه بقي هادئا في مهده. أماّ أنا فأنظر إليه وأقول: "إنها لمتعة أن أرنو إليه وأنا سارحة تهدهدني أمواج الأحلام." أنظر إليه وعيناي نصف مغمضتان أو نصف مفتوحتان. لست أدري. نسمع الأشياء وهي تستيقظ دون عجلة من كل الجهات، مع تجنب إحداث أصوات كثيرة.

هي الأخرى لا تزال تتسكع في أحلامها. ولكن إلى حين وصول ما من شأنه أن يجعل قلبك يطير في صدرك ويحطمه، ثم يفتحه ليملأه بهذا الفرح الرهيب : إن أباك هناك، إنه ينام في الجهة الأخرى من الجدار. جدار رقيق لدرجة أن أنفاسه تخترقه. وها أنا أستمع لزقزقة عصفور الصباح في ذات الوقت الذي أسمع فيه تردد أنفاس أبي. زقزقة فريدة، كأنفاس أبي وها أنا أشعر بأنامل النهار تلامس جفوني. أي سعادة هذه. إنه ماء يسيل، يسيل فوقي ويأخذني معه فأتوه وأرحل فيه...

سأستأنف نومي، وأعود إلى الأصل، أعود إلى تلك اللحظة التي يصبح فيها جسدك لا ينتمي إليك. كأن أجراسا تدق في أعماقك. ولكني أعلم، وأنا نائمة مماما : إنها أجراس النور، وحلم الأشياء، في الوقت الذي ينتظر فيه حلم آخر خلف الباب. ثم لا ينتظر، ويبحث عن مكان يدخل منه. يصارع مفاصل الباب. يا إلهي، حلم ماذا ؟ يريد أن يصل هذا حتى إلي. كل الأشياء تتملكها رغبة في الاحتراق، وإنا لنجهل ما ينتابها، ولَم هذه الرغبة المجنونة. ولكني مأخوذة بذات الرغبة، وأريد أن أصرخ : "أبي ! أبي !"

وبصوت منخفض مماما أنادي : "أمي."

لا أصرخ بسبب الصمت، ويعود ذلك الشيء إلى خلف الباب. لأنه دخل دون أن ألمحه، لقد عاد إذن إلى

خلف الباب ولكنه لا يزال هناك. تركت أذني تصغي إليه. لم أسمع إلاّ الصمت، وفي هذا الصمت لا أسمع غير الأنفاس، شيئا ما مستعدا أن يذوب فيك، وأن يخنقك تحت وطأة ثقله وليس ذلك أسوأ ما سيحدث. يحدث أن يعود وأن يظل في مواجهتك، ببساطة ؛ أن يواجهك، وأن يرافقك، وبالرعب الذي يُحدق فيك يمكن أن يحتفظ بك تحت نظره الغائب، وتحت عجزه عن الرؤية. إنه يحدق فيك وأنت تتأمله دون أدنى حركة، عاجز حتى عن محاولة المقاومة. ويأتي النوم الذي تود الاستنجاد به لينتشر من جديد على مقلتيك. وسيكون من المؤلم لك أن تميز بين بياض هاتين العينين والبياض الذي من حولك، ولن يكون بمقدور كل ظلام العالم أن يمد إليك يد المساعدة، اليد الطيبة، وأن يقودك إلى حيث تنتظرك المناظر الخطيرة. ربما تكون مناظر مياه. مياه شفافة، لا يمكن الوصول إليها، مياه خفيفة تسري دون خرير ودون انتهاء، ما لم تكن المياه البعيدة الراكدة، مرآة في الجمال. أو ربما مناظر من نار، تكون فيها شعلة تجري وترقص وألسنة اللهب تغطيك بأجنحتها الصلبة. يمكنك حينئذ الاختفاء، كل شيء يمكن أن يختفي في هُوّة الفرح الذي لا يفنى.

كلا، ينبغي أن أنهض : هذا يكفي. كنت قد أعددت خطوات للرقص في ذهني عندما كان رأسي لا يزال على الوسادة. سأرى إن كنت سأنجح في تنفيذها. ها أنا أرقص.

أرقص وأنا عارية تماما، لا وجود لأحد غيري، أخذت ألفّ ثم أعيد اللف في جنبات المطبخ. لم أكن بحاجة إلى موسيقى لأنها كانت في رأسي هي الأخرى. كانت قدماي تجدان متعة كبيرة في الرقص، وكذلك رجلاي وكافة جسدي. يا لمتعة ذلك الرقص، بعد أن قضيت ليلة كاملة في النوم. أرجو أن يطول الصمت كي أستطيع أن أرقص وأن أرسل الليل إلى حيث ينبغي أن يذهب الآن. ها أنا أسمع قاطرة النهار تلهث بعيدا. إن ذلك يشبه لهاثي أثناء الرقص. لم أعد خائفة، لا على نفسي ولا على ذويّ.

— ما كل هذا الضجيج الذي تحدثينه يا ليلي بال ! كأن قطيعا من غزلان الرنّة يعْبر البيت. وأنت بدون قميص النوم.

إنها أمي. إنها لا تفهم ماذا يجري. لقد أيقظتها. أما أبي فلا يقول شيئا. إنه لم يعد ينام منذ مدة ولكنه لا يقول شيئا. أنا أعرف ذلك،. كان يستمع إلي وأنا أرقص منفردة : أنا متأكدة حتى من هذا أيضا.

وها أنا من جديد في سريري، لا يزال الوقت باكرا. هذا السرير الذي يمكن اعتباره مثل سفينة، نرحل بمجرد أن نستلقي فيه. إنه سفينة نبحر بها بعيدا، بعيدا جدا. ولن يكون الوضع سيئا لو فعلنا شيئا آخر، ولكني أجهل ماذا أفعل.

لا شيء بعد. لا أسمع غير البيت يتنفس أحيانا ويتأوه أحيانا أخرى. وعمق هذا الصمت صعب الاختراق كأنه كنز. إنه كنز البيت.

زحلقت رجليّ إلى الأمام ثم نحو الأعلى، وأنا مستلقية، ثم نصبتهما أكثر نحو الأعلى، وفي هذه المرة صرت أتدلى من السماء. صار جماله فراشي. وذبت في حمّام من السحر ولكني أيضا شعرت أني أولد من جديد. أولد من جديد، وأستعيد التشكيل وأي تشكيل : تشكيل ما كنت قد تمنيت أن أكون عليه أبدا. إنه سرّ خفي. إنه سرّي.

انطلاقا من هذه الدقيقة، سوف تلتحم مع كل شيء، وتسبح في الابتسامة. وتغدُو سرا متفتحا في الفضاء، وتصير أنت الإشارة التي تفتح العالم وتحميه.

لمحت فجأة من موقعي ذاك كيكي في الأعلى. كان يتقدم بخطى ذئب. إنه ذئب يحضّر ضربة خبيثة أم أنني مخطئة خطأ جسيما. سأعدّ له أنا أيضا مقلبا على طريقتي، سأنهال عليه بكل هامتي. غير أن هذا الوغد، الأمكر من ابن مقرض، قد أحس بوشك وقوع الخطر فتفاداه واختفى.

ماذا يحدث معه : أكبر أنا وأنمو، ويبقى هو على حاله. إنه يحتفظ بقامته القصيرة كالإبهام الأصغر. إنه لا يحتمل ذلك حسبما أعتقد. وهذا ما يجعله ثائرا، ويُحوّله إلى كائن شرس، ويُرغبه في الانتقام. ما العمل ؟ لا ذنب لي إن ظهرت أطول منه مرتين. غير أن هذا لا يمنعني من أن أحبه دائما. ولكن لا يمكننا أن نشرح له شيئًا، إنه لا يترك لنا أي فرصة للاقتراب منه أبدا. ينتابني أحيانا إحساس غريب فأقبض أسناني، وأحكم قبضتيّ وآمر جسمي بالتوقف عن

النمو، وأدعو من أجل ذلك بكل قواي. وإني لأتساءل إن كان ذلك سيؤدي إلى شيء ما. على كل، لا شيء لحد الآن.

— ليلي بال، ألا تنهضين؟ إنك تنامين وعيناك مفتوحتان.

هذه أمي من جديد. لقد جاءت لتخلّصني من هذياني. الآن وقد تهيأ كل شيء لاستقبال الصباح، ها أنا أنهض بدوري. أنهض لأرى ذلك : الحديقة في المقام الأول. إن أول ما أقوم به هو زيارتها. أسلم على نباتاتها. أصبّح على أشجار السند، والصنوبر، والعشب، والأزهار، وخاصة خمائل الورود المستيقظة منذ مدّة، والمخلصة لأماكنها بعد ليلة كاملة. هذه الحديقة الجميلة المفتوحة على الغابة الزرقاء إلى أي مدى يمكن أن تمتد بوشاحها الضبابي. ستكون هناك فطريات عندما يحين الأوان، وأنا خبيرة في الفطريات، حينذاك، سأجمع منها الكثير. نجد فيها كل ما نبحث عنه، الفطريات، وعنب الأحراج والفراولة البرية. يمكننا أن نذهب للبحث فيها عن كل ما نريده. ونتصور أننا سوف نتيه فيها : كلا، إن طرق الغابة لا تقودك إلاّ للمكان الذي ترغب في الذهاب إليه.

أريد أن أطير بين أحضان شجرتي، أريد أن أحلم: بماذا ؟ ببلاد بعيدة عن هذا المكان، وتقع في العالم الواسع. بلاد أكون فيها وحيدة مع الريح، مع موسيقاها التي تملأ أذنيّ، وتملأ شعري، ومع شيء ما لا يمكننا قوله. لن يكون نورا بما أننا نستطيع أن نقول النور. شيء ما، يسري فيّ إلى الأمام، ويرقص ليشجعني على اتباعه. سيكون مع ذلك مثل نور، ولكنه نور خاص بي أنا شخصيا. لديّ فكرة أن ذلك موجود، وهذه الفكرة تروقني. آه أيها الشيء، شكرا لك. يكفي أن أفكر فيك ليترنح قلبي من فرط السعادة. وأنت أيتها الأشجار، تصرّفي من أجل صمت أبيض تماما. يمكنك أن تنصتي، يمكنك أن تحركي أطراف أوراقك الصغيرة. ولكن ليس أكثر من ذلك.

إنها تعرف – وما الذي لا تعرفه ! – وهي تحرك آذنيها لتقول أجل. إنها تعرف حتى أين سأذهب للبحث عن البذرة التي تُنبت الأفكار، والنباتات، والأزهار والناس

وحتى هي في ذاتها. أمّا الأزهار فلا داعي للحديث عنها، إنها جميلة جدًا لدرجة تجعلها لا تفكر في شيء آخر غير ذاتها. وأنا متأكدة أنها لا تعير اهتماما لما أفعله الآن. إنها تظن نفسها ملكات. ولكن سيأتي البرد، ويأتي الثلج، أين ستكون الملكات عندئذ ؟ ليس الأمر كأشجاري الموجودة هنا والتي ستظل هنا. حتى في الخريف عندما تصدأ الحديقة، وفي الشتاء عندما تغدو أوسع ويغدو العالم أوسع منها. وحتى بعد الأزهار، وبعدي أنا، لنتذكر من كنّا.

بالنسبة للأشجار التي تنمو عن الطرفين، هناك دائما أمل. وهي ليست مجبرة على العودة في كل مرة إلى نقطة الصفر. فالماء يستطيع زيارتها كيفما يحلو له، وكذلك الهواء، وينصرفا عنها وقتما طاب لهما ذلك. ذات يوم، ألقى عليّ أبي هذا السؤال : أنت تغتنمين ! سألته : أنا أغتنم ؟ أغتنم ماذا ؟ ضحك بدون صوت كما تعوّد أن يفعل بعينيه، عيني ذئب الرمال المتقدة. لم يجبني على سؤالي وصرح بكل بساطة : "كل الأطفال، رِمِّيات رِ، مِّ، يّ، ا، تّ*" قلت : "هل هو اسم جديد تمنحني إياه ؟ تشويه للأجنة !" توقفت ضحكة أبي هذه المرة مسبقا ؛ لقد كانت على وشك أن، ولكنها توقفت، وسأل : "من أين تأتين بهذه الكلمات ؟" قلت : "منك أنت. إنها تأتي منك." قال : "مني أنا ؟" وبدوري سألته : "لماذا يهبط

* . Saprophytes ما يعيش على العضويات البالية المترجم (رمّي).

الظلام عندما يجنّ الليل ؟" بحث ولم يحر جوابا، وقال في الأخير : "هل تعرفين ذلك أنت ؟" أنا : "أعرف تمام المعرفة" هو : "لم لا تُنيرين مشكاتي حينئذ ؟" أنا : "حتى تتمكن الأشباح أيضا من العيش قليلا." لم يضحك هذه المرة.

هذا النور هو الموت ما دمت أغرق فيه كما هو الحال الآن، وهذه الفقاقيع هي الكلمات التي تشكلها شفتاي. فقاقيع ومزيد من الفقاقيع، كل ذلك ينتهي بصنع حكاية ؛ ولكنها حكاية مملوءة بالثقوب. كلا، أنا هي المملوءة بالثقوب، وليست الحكاية. إنها تشبه تلك القصاصات التي أصنعها بالمقص. حتى الحديقة تستفيد – هي الأخرى – من هذه الحكاية. فهي تصغي من زواياها المنيرة إلى الزوايا المظلمة. الحكاية هي الزمن. الزمن الذي لديه من الوقت ما يمكّنه من فعل كل شيء. وضعت الريح يدها على فمي. إنها تريد أن أسكت. هذا ما تريد. أما أنا فلا، أنا أمشي، أتحدث، ألهو، وأحكي حكايات في حكايتي. أنا لا أبالي بالريح.

إن هذه الريح التي تتسلل بين الأوراق وتلامس رجليّ المتدليّتين مجرد هبوب لا يستطيع حتى الدخول في الحكاية. إنه موجود في كل مكان، لكونه لا يمكن أن يكون في أي مكان. ثم سكت هو الآخر واختفى. لم تعد أمي تناديني. لا بد أنها مشغولة جدا، مشغولة بقراءة الجريدة، أو بالحياكة،

أو بصنع الحلوى لوقت اللمجة. هل تدري أني أفكر فيها ؟ وأفكر فيها بشغف. في لحظة لم تعد الكلمات تستطيع أن تقول ما ينبغي أن تقوله، وفي الوقت الذي نكون فيه في أمس الحاجة إليها. ليس هناك إلا الصرخات. لم يبق سواها. ولكنك تخاف الصيحات. أجل لأنك تصرخ ولا تسمع أي صوت يخرج من فمك. إذن، وبهدوء قلت : أمي، إني أراك وهالة تحيط بعينيك، هالة تحيط بشفتيك وأخرى تحيط بمحيّاك. هكذا كمية من الهالات، ثم كل الهالات، هالة النظر، هالة الابتسامة، هالة الجمال، وكلها تشكل هالة واحدة. ربما كانت بصدد رتق التمزّق. تمزّقي عنك الذي بدأ في الظهور. حتى الموت ينبغي أن لا يموت في هذه الحالة. أنا متأكدة من ذلك. فكما أننا ننظر في المرآة، فهي تنظر إلينا وتبتسم هي الأخرى بهالتها إلينا. وأنت، وحدك في البيت، تبتسمين يا أمي، ولا شيء يضيع، ولا أحد يضيع. أما أنا فتسقط دموعي بداخلي، وأغلق الباب عليها.

قال أبي :

— أنت حارسة الحديقة.

كان ذلك ذات يوم

قلت أنا :

— حارسة الحديقة، وحارسة الغابة والسماء التي تعلو رؤوسنا.

— أنت حارسة أمك.

— حارسة أمي وأبي.

— حارسة النهار والليل.

— حارسة النهار والليل، وحارسة الأرواح والناس. حارسة العالم. حارسة كل ما يمكنك أن تتصور !

— أنا أتصور ذلك دون عناء يا بنيتي.

أنا أعشق هذه الطريقة التي يخاطبني بها. فأنا مهيأة لها. وفي كل مرة لا ينفع معي ذلك، يكون في كل مرّة شيئا آخر غير ما كنت أنتظره. إن قدميّ لا تلامس الأرض، عندما يكون معنا فأنا أعيش معلقة في الهواء. والآن أخشى أن أنظر إلى أسفل الشجرة، أن يكون هناك في الأسفل. إنه ذلك الرعب الذي يرغب في مفاجأتك. أستطيع أن أرى وجه أبي من خلال وجه أمي. لن أنظر هناك إلى الأسفل. كلا، لا، لا. ولا على الخصوص. ولكن لمَ تأخذ جميع العصافير في الزقزقة كما لو كانت صبْية خافت من ظلها. ربما لا يوجد أي شيء، أو أي شخص. قلت لها : سلاما، سلاما، ومن ثم لم تعد تلك القلوب التي تفزع وتصرخ في الظلام. إنها تؤمن بي.

أنا من يفكر الآن : ها أنا قد صرت كبيرة. أفكر : أنا لست في الأشجار حيث أنا موجودة الآن. أنا بعيدة. أنا

وحيدة. انتهى كل شيء، بما في ذلك الألعاب. أفكر : أنا عجوز وهذا لن يتغير أبدا، لن يتغير أي شيء أبدا، ولا يمكن أن يحدث لي أي شيء أبدا. أنا أكثر شيخوخة من أمي، وأكثر شيخوخة من أبي. مضى كل شيء ولم يبق لي غير هذا الماضي. ومكثت في شجرة مع نهايتي. ربما أكون قد متّ وأني بصدد العودة للشباب كما كنت، شابة وجميلة في حياتي الجديدة.

أمي ؟ حمامة تنفخ حنجرتها وتنطلق في الهديل. وأما أبي بالنسبة إليها، فهو ذئب بنظراته. لا ليفترس الحمامة، بل على العكس من ذلك إنه يرتقب عباراتها، ويوشك أن ينهمر باكيا. هي العالمة بذلك، تواصل استعراض هديلها وعيناها ملتفتتان إلى مكان آخر أو مرفوعتان نحو السماء. تهدل وتهدل. وأنا أنظر إليها تارة ثم أنظر إليه تارة أخرى. ثم لا أنظر إلا إليه. إنه ذئب ترسل عيناه نورا من مخمل وعرفان. لسنا بحاجة إلى البحث عن السعادة، إنها هنا، في متناولنا.

إن الوجوه مصابيح نضيئها بنظرة بسيطة عندما نلقيها عليها. وإلا فإنها تنطفئ. ووجه أمي يلمع بكل إشراقه الآن.

لقد هدلْت كثيرا يا أمي، وأشرقت بما فيه الكفاية. لا تبالغي. وبالمرة قلتُ :

— إن كنت ستذهب ككل مرة مثلما تفعل يا أبي،

فلتذهب مرة واحدة وأخيرة، أو فلتبق مرة واحدة وأخيرة.

توقف وجه أمي عن الإشراق، ولم يعد غير نقطة استفهام تسائلنا.

أما أبي فاستمر في مراقبتي، والتفرّس مليا فيّ، وفي عينيّ. وكنت أبادله بالمثل. إنه على ما يبدو لا يشكو ضررا في شخصه. ولكن كيف هو، رجاءًا لا تسألوني عن ذلك، فإني لا أدري ما أقول. عادت أمي لتسلط عليّ الانتباه الذي استعادته، ثم على أبي، ثم عليّ مرة أخرى، ثم على أبي من جديد.

يبدو أنها لا تفهم شيئا لحد الآن. ولا شك في أنها تفكر في شيء ما : إن المظهر يخفي دائما شيئا ما، وكذلك القول.

صرّح أبي من جهته قائلا :

— إن الوقت الذي لا أستطيع أن أبقى فيه في مكان ما، أراه يقترب مني رويدا رويدا، وأنا غير مسؤول عنه.

كانت نظراته قد استقرت سلفا في المكان الذي يريد أن يذهب إليه. إنه لم يعد يراني.

قلتُ :

— وإلى أن تعود، ينبغي أن تذهب فعلا، أليس كذلك ؟ إن ذلك لا يضر كثيرا.

وواصلت دون أن يسمعني : إن ذلك لا يضر، لن أعاني من أي همّ. دون أن نكون موتى، كل ما هنالك أننا ننسى أن نعيش لكننا دائما موجودون، إنك تعرف ذلك

وتعرف كيف تعود. وإن لم تتذكر، فنادنا وسترى كيف نأتي للبحث عنك. لذا ينبغي أن لا تحمل همّا أنت الآخر.

هل يمكن أن نكون سعداء بما عندنا فقط؟ أطرح السؤال الآن على نفسي. سعداء بما عندنا من الأشخاص، وبما نحن عليه؟ فالشمس مثلا تسطع في الخارج وعمق البيت يلفنا. وُضعت هذه الأزهار في مزهريتها على حافة النافذة من أجله. وقد لاحظ ذلك. لقد رأيته. ماذا بقي لنا أن نعرف فوق ذلك أو أن نكسب أكثر من أننا مع بعضنا بعض؟ ولكن توجد دائما، بينك وبين الأشياء، وبينك وبين الآخرين، صحراء برائحة رمالها الحارة.

— لأنك تحمل أيضا في داخلك ذئبا، يا أبي. والذئب لا يمكن أن يعيش بعيدا عن الصحراء، أليس كذلك؟

رشقني بابتسامة من نظره النوراني ولم يقل شيئا. أنا أفهمه كما أفهم هذا النور الصحراوي.

هناك شيء ما لا يتوقف أبدا عن الطواف من حولنا. أمكث تحت نظره كما لو كنت بهذه الطريقة أحتمي بخيمة.

ذهبت أمي الجميلة جدا لتحضّر لنا الأكل. وبقينا نحن في الانتظار.

في انتظار أيضا من منّا سيستأنف الحديث. ماذا يمكن أن يجد ذئب في الصحراء من الأشياء ليأكلها؟ كنت قد انتظرت أن يعود من هناك مثلما أنتظر الآن أن يعود للحديث. ليأخذ كامل وقته! فالحياة نفسها لا يمكنها أن

تمنع نفسها من أن تدير جانبا من وجهها نحوك ذات يوم، وفي اليوم الموالي الجانب الآخر. اذهب أنت واسأل ما جدوى هذه اللعبة.

كانت شعلة عينيه تلتهب طول الوقت. وفي ظلها الذي لا يكاد يلمسك، يجعلك الشيء تصرخ من الرعب. وعلى الرغم من أنه موجود هنا فعلا، فإنك من الصعب أن تعرف عنه أي شيء. والأكثر من ذلك : أنه كلما طال بقاءه كلما قلت معرفتك به. ثم طأطأ رأسه واستأنف الكتابة.

حتى أنت يا إلهي، ماذا يمكنك أن تعرف عنه ؟ أنت ذاتك حين تنظر إليه، فإنك تنجذب نحو قاع الهاوية. وكلما ازددت انجذابا كلما نزلت إلى الأعمق.

ومع ذلك فكل شيء هادئ هدوءا عجيبا : أثاث الغرفة الذي يبدو في أحسن أحواله، والشمس الخضراء الزرقاء التي تنسكب عبر النوافذ. وحتى الأشجار فهي تنظر إلينا عبر الزجاج مثل الأصدقاء. هذا دون الحديث عن الجدران البيضاء، وعن الزربية المعلقة من طرفها، وعن السرير الأسود، وعن الأريكة في زاويتها حيث أجلس منتظرة. قلت :

ـــ أنا خائفة.

قلت بكل هدوء : أنا خائفة. واصل الكتابة. كيف تقع الكلمات على الورق ؟ كانت تتولد بينما يواصل الكتابة

وهو يفحص الورقة. وحتى أوراقي أنا، أوراقي التي أعهد بها عادة للريح، وأوراق الآخرين تنتهي كلها عند هذه الورقة أيضا، وهذا لا يثير فيّ الدهشة. يبدو أنه يسمع كل الأصوات خلال هذا الوقت بما في ذلك الأصوات التي لا وجود لها. كان يخاطب ورقته بعينيه، قائلا :

— خائفة، كيف ذلك ؟

— خائفة منك.

— مني أنا ؟

— لا، مني أنا.

ندت عنه ضحكة صامتة نحوي.

— منك، مني !

— أنا خائفة، هكذا بكل بساطة.

قال :

— أنا أيضا،

— أنت أيضا ؟ ولا تدري ممّ ؟

— كلا.

— ربما خائف من أن تكون سعيدا لهذا الحد.

ردّ بدوره :

— ربما.

كان لا يزال وقلمه معلقا في الهواء، يسمع الكلمات التي لا توجد، أو التي توجد في مكان آخر ولكنها لا

تصل إلّا لأذنيه. هاتين الأذنين الملتصقتين برأسه وغيرهما من الآذان.

قلت :

— بمقدار تعاستنا. بمقدار معاناتنا ممّا لا ندري.

نهض عن مكتبه. وصل إليّ. وبما أني جالسة فقد ضغط وجهي بإحدى يديه على بطنه. إنه هو الذي يريد الآن أن يحملني في بطنه، هو من يحتاج إلى ذلك. شممت الرائحة التي تضمخ ملابسه : كأنها رائحة الزعتر. أن تخرج من بطن أمك فذاك أمر طبيعي جدا لا يستحق الذكر. لكن أن تخرج من بطن أبيك ! فهذا يعني أنك وُلدت فعلا، شرط أن يقبل الأب أن يحملك.

قلت :

— كما تسقط في الطريق قبل أن تبلغ بيتك،. وقبل أن تصير بين أحضان من تحب.

أنا سعيدة في بطنه، ولكني أختنق، ويختنق معي أيضا ما أريد قوله. تخلصت منه.

فقال :

— أنا أعرف، نحن سعداء ونعتقد مع ذلك أننا سنسقط.

— لا شيء يمنعك من السقوط.

— ربما يجب أن نتشبث بأنفسنا، وأن نجرؤ على القول لأنفسنا بأننا لن نسقط.

— هل هذا ما تفعله أنت ؟

— أصعب عليك أن تكون شجاعا من أن تكون سعيدا.

— أعرف ذلك. هل هذا ما تفكر فيه أنت أيضا ؟

— أظن ذلك.

— أنا أيضا أكون جريئة أحيانا. وذلك ما يخيفني في بعض المرّات.

لم أسمع ما أجاب به في همسة منه، وفي الآن نفسه لا أعلم إن كان فعلا قد أجابني. أظن أنه قال : "أنا أيضا".

قلت :

— ولكني أنا خائفة منك أيضا.

قال :

— خائفة مني أنا ؟

— أجل.

— لماذا ؟

— لأنك أنت.

— لأني أنا.

— ولأني أنا.

كما لو كان الموت يرسل لي إشارات صغيرة، طرفات عين. ولكني لن أضيف أي شيء، لست مجبرة على ذلك. إنه هنا في مكان ما، وأنا هنا. نحن الاثنين بين هذه الجدران

الأربعة، الباب والنوافذ المغلقة، وأبي بيننا. ستكون أمي مرعوبة جدا لو تمكنت العصافير من الدخول. من أجل ذلك نغلق المخارج ونقفلها. ستائر من المطر تتهاطل أمام عينيّ بغبارها المبلل، وعبر أوشحة المياه هذه يرتعد وجه وفم مفتوح إلى آخره ومستعد لإطلاق صرخة. ابتعد أبي ويده ممدودة خلف ظهره.

— تعالي. سنذهب لنتجول قليلا في الغابة.

مازال الوجه يرغب في إطلاق صرخته، ولكنه لا يفعل ذلك.

انطلقت يدي لا إراديا وصفعته أيّ صفعة. كيف، لماذا. لا أدري. ولن أدرك ذلك أبدا. لم أكن أنا من صفع بل كانت يدي. لم يفه بكلمة ولم يحرّك ساكنا. عاد إلى الحديث كما لو لم يكن قد أحسّ بشيء، ولم يتلق صفعة أو أي شيء آخر. كانت يدي ستنطلق من أجل صفعة أخرى، ولكني أمسكتها ولم يحدث أي شيء. بل كانت بالأحرى يدا ذهبت لتداعب وجهه. إن لحيته تخز من تحت الجلد حتى وهو حليق الذقن. داعبته يدي فابتسم بطريقة غريبة.

واصل الحديث ولكن بوضع الطاولة بيننا. لم أفهم ذلك في البداية، ثم وضع من الأشياء التي صادفتها يده بيننا أكثر فأكثر. عندها فهمت. ولم أتمالك نفسي وأجهشت بالبكاء. إنني أنا من بدأ بوضع الصفعة بيننا.

فكرت فيما تستطيع يد أن تفعله دون أن تستأذنك في شيء. تفاديت إلقاء أبسط نظرة على يدي. أريد أن أنسى، أن أنساها. يصبح العالم في بعض المرّات جد مرعبا

لدرجة يحذر الواحد منّا فيها يده شخصيا. إن الأمر مثل باب لو فتحناه لوجدنا خلفه كل ما لا نريد أن نراه ؛ باب من السهل فتحه ولكن من الصعب إعادة غلقه ؛ وحتى عيناك ليس من السهل عليك إعادة غلقهما بعد أن تكون قد ألقيت نظرة هناك. وربما عدمت حتى الصوت لتطلب النجدة.

الأمر على هذا النحو في بعض الساعات، وفي ساعات أخرى على غير هذا. في بعض الساعات تكون أنت أنت وفي ساعات أخرى عكس ذلك. الوضع متغير طيلة الوقت، ولا يوجد غيرك ليدرك ذلك. في هذه الدقيقة، الوضع هكذا، أنا هي أنا. ولكن ينبغي أن نحذر ذلك. فهذا الأنا إن كان مكتملا، سيكون كشخص أو كضوء نهار. سيجد نفسه قائما تماما أمامك، ولا يشبه إلا نفسه. أنا لست لا هذا ولا ذاك، لا شخصا ولا ضوء نهار. أريد أن أضع يدي على عينيّ، وأشاهده مكتمل الشكل. لننظر هكذا إلى أنفسنا في مرآة، وسنكتشف فيها شخصا ما ولا يمكننا أن نقول دائما إن في الأمر خدعة أو غير ذلك. إنه هو بلا ريب، شخص آخر بلا ريب. أقول في قرارة نفسي : "هذا أنا" لأنه لا أحد آخر ينظر في هذه المرآة. ولكن كيف نعرف ؟ هل أنا هنا أم هناك، لا يمكن أن نكون في موضعين في وقت واحد. إننا، في الواقع، نجهل ما يجري ومن يراقبنا من الجهة الأخرى. لو كنا فقط نستطيع

أن نذهب هناك لنرى. لنرى أنّ من يختبئ في عمق المرآة لا يختبئ أبدا. ولكني أعتقد أننا سنمضي حياتنا في طرح مثل هذه الأسئلة على أنفسنا.

في هذه اللحظة، أفاجئ واحدة تغدو وتعود، وتدور حول نفسها، وتحني رأسها، وتتأمل ذاتها في هيئات مختلفة بين عبوس وسرور. يمكن أن تكون أنا. كلا، ليست أنا. بقيت جامدة في مكاني أراقبها، وهي من الجهة الأخرى تفعل أشياء غريبة وأخرى تافهة. وأنا كالتمثال أراقبها. أقول في قرارة نفسي : "هذا غير ممكن" وأراقبها مرة أخرى، ما الذي لا تفعله ! لو رأيت ذلك لأصابك شيء من الألم وشيء من الخوف. ولكن هناك أيضا حنانا دافئا مع هذا الدم الذي يصّاعد إلى وجهك، وتغدو منك العيون نوافذ للحب. فأنسى من أنا، أنسى تلك التي أرسلت صفعة إلى أبيها.

سأذهب إلى الخارج، سيكون ذلك أفضل لي. سأذهب لأعيش مع العالم. مع الأشجار والهواء بين الأشجار، ومع الورود والكشمش، ومع الهواء والسماء، أتنفس معها. هنا، في الحديقة، لا يستسلم أي شيء ولا يخور، حتى متعة العيون أو متعة القلب. لا يوجد غيرك ليفكر في خطر محدق غير بعيد منك أبدا، غيرك أنت لتضعف وتفكر أن العالم يمكن أن يتجاوز حضورك في الوقت الذي يظل فيه وفيا لذاته، ودون أن يطلب منك الوفاء نفسه.

ومع ذلك فهناك ظلال ترصدني وتتبعني. أتركها تفعل، إنها ليست سيئة النية إلى هذا الحد. ولكني بدأت مثلها في رصد كل شيء بالعيون ذاتها التي كانت ترصد بها. نزلت أمي كذلك إلى الحديقة، أنا أرصدها بالعيون ذاتها. أما أبي فهو لن يتحرك من هناك في الأعلى، فهو السماء فوقنا. السماء التي تغطي كل شيء. لو كان فقط ينظر إليّ من سمائه مثل وردة هذا الصباح المتفتحة.

تدافعت خطواتي في الحديقة، مبتعدة عمّن أنا، تاركة ورائي الصورة التي تشبهني ولكنها ليست أنا. لأني لا أستطيع البقاء في هذه اللحظة. لا يمكنني أن أردّ على أبي إذا تحدث إليّ من نافذته في الطابق الأول، ولا أن أسمع ما سيقول لي، ولا أن أعمل ما ينبغي لي. ببساطة لن أستطيع. لقد توقفت عن أن أكون من يتصور. أن أكون : طفلة تلعب لعبة الحجلة، طفلة تنط الحبل، طفلة تلعب دور المجنونة الصغيرة، طفلة تريد أن تُدللها. لا شيء من كل هذا. ليست أنا، هذه، طفلة تجلس في أريكة وتعبث بأصابع قدميها، أو طفلة تضيّع وقتها في مناقشة أبيها. ولكني أريد فعلا أن أترك له هذه الصورة قبل أن أذهب بعيدا، لا مبالية، لا مبالية تماما، أستنشق الهواء إلى حد الذوبان والاختفاء من هنا ومن كل مكان، إلى أن أصير الهواء الذي لا يراه أحد. وداعا أبي.

يزقزق الآن في الحديقة عصفور وحيد مع ذاته، ويذهب للاختفاء في مكان آخر، ثم ينتظر. يزقزق ثانية ثم ينتظر

من جديد، ليرى هل من أحد يترك نفسه ويجيبه ؟ هي لعبة بالنسبة إليه تستمر لمدة طويلة نسبيا. ثم لا شيء. صمت مطبق. صمت يتسمع ويدق مثل دقات القلب. تشعر الحديقة أنها أكثر وحدة كما لم تكن من قبل أبدا، حديقة من الألم. ما عليها سوى أن تلوم نفسها، وأن تعاتب هذه الظلال التي تتحرك في كل الاتجاهات. إلى متى يا إلهي ؟ إنها تضحك عليها من كل جهة، ومن كل زاوية. أنا لست موجودة فيها، أنا لم أعد موجودة فيها.

غدوت ككلب لاهث، ولا وجود إذن لغير هذا الصمت. وها هو الشيء يصل. إنه يصل. الصمت هو الوحيد الذي يعرف اسمه. وماذا لو كنت أنا هذا الشيء، أنا برأس كبيرة، وبشفاه غليظة ؟ إن بلدي ليس بلد أبي، ولكنه ليس أقل تصحرا منه في بعض النواحي، صحراء من الماء، ومن الغابات ومن لا شيء، حيث الصمت وحده يعرف اسمي، طالما أننا نحتاج في الصحراء إلى اسم.

— سأرقص الآن يا أبي، وأنت ستعزف لي الموسيقى. هذا ما قررته ليلي بال التي التحقت بي لتوّها.

— ماذا لو وضعنا أسطوانة، ألا يكون ذلك أفضل ؟

— كلا، أنت من سيعزف الموسيقى.

— حسنا يا ليلي بال، هيا بنا.

دورا وراء دور، وتموّجا متحذلقا وزمجرة بألحان "كون فيو كو" وبعده مباشرة لحن "جيو كوسو"، ثم أخذت أرتجل دون تأخر، أقلد آلة ثم أخرى وأحيانا أجمع بين آلتين. أما هي فقد انطلقت تتباعد وتتقارب، وتتضخم وتتقلص، وتنثني وتلتف في سلسلة من الحركات دون خطإ أو تعثر ولو لمرّة واحدة. لم تكن عيناها وابتسامتهما من خلال الوجه العابس لتفارقاني. كانت ابتسامة متحفظة موجهة إلى ذاتها أكثر مما كانت موجهة إليّ، وكانت تعبيرا مركزا على اندفاع جسدها.

لا وجود لمتعة دون جنون، ودون دوار. وسرعان ما رأيتها محمولة، مرفوعة تحاول أشكالا من الحركات غير متوقعة، فيها كثير من المجازفة. تماما كما لو كنا نرمي بأنفسنا في حريق لنسبح فيه على الصدر، في حين يغذي الحطب لهبا جديدا. هناك فتنة تغمر نظرتها ويمارسها عليها شيء ما يستعصي عن الوصف. ها هي الآن تسري في أطرافها وتحكم حركاتها. إنها تنعزل إلى هذه الدرجة في الرقص حتى أني أنزعج وأتساءل إن كانت ستتوقف عنه لو أني قطعت موسيقاي عنها.

لقد سبق لأمها، أمها، قبلها... ذات يوم، – كان ذلك أربع سنوات قبل ميلاد ليلي بال – كنا راجعين إلى شقة قد أعيرت لنا في ذلك الوقت وأيدينا محملة بالمؤونة. لن أنسى ذلك أبدا : فبمجرد أن وضعت أكياسها، قامت بوضع أسطوانة على الحاكي، وكأنها غير محتملة الاستمرار في الحياة بدون رقص. وها هي على طرف إحدى قدميها، ثم على طرف القدم الأخرى تجول وتدور في قاعة الجلوس. كانت تتصرف في جسدها كما تشاء، وكان يطاوعها على ذلك، فكانت تقوده بأناقة ودون تكلف. أناقة مذهلة. كل ذلك من أجل السعادة التي يمنحها لها الرقص. كانت ثملة لوحدها برقصة الفالس التي انغمست فيها، أما أنا فكنت أتابعها بإعجاب والنشوة تغمر روحي.

ودون أن تلقي نظرة واحدة من جهتي، بنفس ابتسامة ليلي بال العميقة في هذه اللحظة، وبجفنيها المسدلين لحد

الانغلاق، كانت تهبني رقصتها. هذا ما كنت أدركه رغم كل شيء. أعتقد بأنها كمن يمارس شعيرة دينية أمامي. كل ذلك في الطابق الثاني عشر من عمارة عملاقة هائلة.

أي شعيرة ؟ فمن خلال النوافذ المفتوحة على كامل عرض الشقة وارتفاعها، رأيت كرة موجّهة تخترق السماء. ما هي، ماذا كانت ؟ هل كانت بي غشاوة ؟ كانت تتقدم ببطء منوّم. كنت أحلم، أو هذا ما كان يبدو لي. حلم قد بدأ بتلك الرقصة. كانت الكرة الموجهة تنتقل دون أن تبدو كذلك في زرقة السماء ذات الصفاء الروحي. وكان الحلم متواصلا.

تملكني انفعال غريب. ونبهني المركب القادم من عهد عفا عليه الزمن إلى حقيقة جديدة، محرّرا بُعدا جديدا فيّ، وباعثا لديّ أملا مكتوما. لقد كانت محملة برسالة وها هي قد وصلت إلى صاحبها، لقد وصلت إليّ. هل كان ذلك هو الأمل المكتوم؟ أما رفيقتي فقد كانت ترقص، وترقص دائما.

حنت ليلي بال ذراعيها، ولوت رجليها، وطفقت تكنس البلاط بيديها. ثم اعتدلت، وانطلقت في استدارات جديدة حملتها إلى غاية قلب الرقصة، أو ما كان يبدو كذلك. وكان يبدو فعلا أن لا نهاية دون بلوغ هذا القلب. وذاك ما كانت تفعله : أن تنفذ إلى القلب. وبانتقال، وتحويل لا تفسير له، أطبق سحر العملية عليّ أنا أيضا، أنا رئيس الجوق والعازف المنفرد الذي لا يكف

عن توظيف الآلات الأكثر تنوعا. وتختلط عليك المشاعر وهي أمامك في كامل عنفوانها، فترجو، تنتظر، دون أن تجرؤ على الإيمان بذلك.

فجأة تجمدت على هذا الشكل : الرجلان متقاطعتان، والذراعان منحنيان فوق الرأس. أترقب الحركة الموالية، أتوقعها وأسبقها بموسيقاي.

— ولكني قد أنهيت يا أبي.

لا يوجد، ولن توجد حركة موالية.

انقشعت النشوة تاركة آثار شيء ما معلق في الهواء، لا ندري أي شيء، عطرا، أو ضحكة، أو فكرة.

وصفقت :

— مرحى !

آه، يا كل أشياء هذا البيت، وضوء الشمس، والحضور اللامرئي الذين تسكنون معنا، وتشاهدوننا نحيى، تعالوا وصفّقوا معي.

ها هي ذي ليلي بال قد استرخت، وأخذت تنظر إليّ نظرة سلوى وأنا منهمك في العمل. إن الطرق التي أسلكها هي ذاتها تتيه لو لم أكن تحت هذه النظرة، وهذا الهدف، هدفي، الوحيد الذي يستحق أن أبلغه.

— ليلي بال ! ليلي بال، أعرف أنك في إحدى هذه الأشجار ! انزلي ليلي بال، انزلي من هناك !

إنها أمي تناديني. أنا شبح ألعب دور بنت الهواء. لن تعرف أبدا أين أنا، وفي أي شجرة. ثم إن تهافت هذه العصافير المصحوب بصيحاتها يزيدني تخفيا ! هي تعرف ذلك. ولكنها في الحقيقة تحدث كل هذا الضجيج حتى لا تقول أين أنا. إنه غبار يُلقى في الأذنين. يمكنني أن أثق بها.

— ليلي بال ! ليلي بال !

واصلت على هذه الحال لفترة أخرى، وبعد ذلك أخذ منها التعب مأخذه. كنت أراقب العالم من هنا في الأعلى حتى لا يقع به أي سوء، وحتى لا يأتيه أشرار بأفكار خبيثة. إن حدث ذلك سأتقمص صوتا غليظا من هنا في الأعلى، وسأخيفهم خوفا شديدا. أنا أحرس العالم، كل العالم.

يرسل الصباح برودته وبياضه. وأنا أقول : وسعادته. ولكن البيت يبدو دائما وكأنه نائم. يواصل حلمه هناك.

مظلما من الداخل. مظلما وعميقا. أما أمي التي سبق وأن نهضت، فقد خرجت أيضا، وهي القمر الصباحي بهالة نومها. وأما الأشياء في الخارج فقد نهضت هي الأخرى منذ مدة طويلة، وأخذت الأشجار وجه الساعة الأولى من النهار. وجه جديد، وجه هادئ. إنه أجمل الوجوه : الوجه الذي نكون عليه بعد ملاقاة فارس أحلامنا.

الوضع مماثل لكل صباح. وبعد ذلك يتغير الوضع، وإن ظل كل شيء جميلا.

فالغابة الزرقاء كما هي، كأنها تبحث عن الدخول إلى الحديقة لترى ذلك عن كثب. ولكن شيئا آخر يمشي ولا نرى ما هو. وشيء آخر يأتي ليدخل في كل مكان، ويعبر كل شيء. ليست الغابة. لا ندري.

صمت، إنه ظل النور، يجري، يعْبر ويدخل. أنصت قلبي لحظة دون أن يخفق. إنه صمت من تمشي، تصل وتمر. ويستأنف قلبي خفقانه بكل هدوء.

لِمَ البحث عن رؤيتها : إنها لا تظهر وجهها لأي شخص. ولكنك أنت، ربما سبق لك أن رأيتها. أكلمها ؟ ربما يكون لها صوت. إن هذه الكلمة التي تتحدث في داخلك، لا تكف أبدا. من يدري إن كانت بحاجة إلى صداقة أو شفقة. أو بحاجة لحياتك كي تحيى، أو بحاجة لوجهك لتظهر. أجل، ولكن ماذا لو لم تكن بحاجة إلى كل ذلك ؟ سيكون الأمر عندئذ أنها تريد أن نعطيها شيئا

آخر، شيئا لا يمكننا أن نعطيه. لفّني نظرها بظلام وطفقت أرتعد. ماذا يمكننا أن نعطيها مما لا يمكن أن نعطيه ؟

إني أرتجف كثيرا لدرجة أني سأسقط من هذه الشجرة. يا إلهي، لا تتركني أسقط. والآن ها هو الأحمر يملأ رأسي، يملأني، إنه الدم. إنه دم الشمس. الشمس التي سقطت عليّ.

— ألا تنزلي من شجرتك، يا دييفوتشكا ؟

ولكنها تجهل أي شجرة.

— من هذه الشجرة التي تختبئين فيها. هيا تناولي فطورك الصباحي.

كلا، إنها لا تستطيع أن تعرف. لأني أغيّر الشجرة كل مرّة. لأني أتحوّل إلى شجرة. إنها تريد أن أنزل. من أين ؟ أنا هذه الشجرة. أرى الحياة أفضل بأوراقي، أوراقي الكثيرة. وبها كذلك ألمس الهواء جيدا. فكم من أوراق، وكم من أيادي، وكم من عيون.

كانت نظرتها وهي تناديني بجملة : هيا تناولي فطورك الصباحي، نظرة مغمورة بالنور، ومغمورة بالابتسام. نظرة خضراء، يمكن أن تكون جميلة، ويمكن أن تكون مرعبة. أما نظرتي أنا فهي نظرة سنجاب بلونه البندقي، إنها تبعث فيّ الدفء عند النظر.

طفقت كل الأوراق تهمس وتضحك. علامَ. كأنها فتيات مرّ بهن شاب. مرّت الريح ولكن الأوراق تصرّ

على الهمس. إنها لم تنتبه لمرورها. ولكن هل شكّت هي ببساطة في أنها كانت تراقبها وتسخر منها ؟ أما أنا فلن أنتظر أن تسقط إحداها بين أحضاني. سأصعد إلى أعلى أكثر من هذا.

تسلقت إلى أعلى مكان ممكن في شجرتي، انتزعت جلد يديّ، وركبتيّ وقدميّ. أنا أتمزق من أجله في حين أنه يمكنني أن أظل على الأرض، وأتجول بهدوء في الحديقة. أتجول وألعب. أو أذهب لمساعدة أمي في نفض الغبار عن أثاثنا، وأعتني بكل الأشياء الصغيرة، هذه الأشياء الصغيرة المحبوبة التي تعيش معنا وتريد مرافقتنا. ينبغي أن تكون لها هي الأخرى أسرارها الصغيرة. أنا متأكدة من ذلك. ولكنها تحتفظ بها لنفسها. أرجو أن لا تنزعج كثيرا وهي ترانا ندور حولها بدون توقف.

تعود الريح للمرور. إنها تبحث عن شيء ما أو عن شخص ما. ربما عن هذه الأشياء التي تتخفى مثل ذئاب هجينة. الذئاب الهجينة ؟ هي ذئاب ليست بذئاب ولكنها تشبه الذئاب. يكفي مجرد التفكير فيها ! إن لم نحتط لها. من حسن الحظ أن السماء زرقاء، زرقاء، زرقاء، وخفيفة، خفيفة : إنها موجودة دون أن توجد، يرفعها فرح كبير وثقة كبيرة. يمكن لساعة الذئاب الهجينة أن تنتظر.

هناك، يوجد بيت أمي، وهناك بيت أبي. وأنا مصانة فيهما بقدر ما أنا مصانة في النور الذي أمامي والنور

الذي ورائي. وإلى أبعد من ذلك تنتصب الغابة الجرداء من العشب، بسرخسها وعوسجها وأزهارها البرية. هذه الغابة هي أي مكان، وذئابها الهجينة المتأهبة للخروج، والجري في كل جهة، ولمطاردتك أيضا. لا أكاد أعرف نوع الأب الذي أملك وكيف سيحميني. وأنا مغمضة العينين، أشعر به حينما يكون هنا فيتملكني انفعال يقشعر له جسمي. هل يوجد من هو أقوى من...

من الحياة ؟

لحد الساعة، لا يوجد غير أمي بجمالها وبجفنيها اللذين يشبهان بتلات الورد، هذا كل ما أملك. أن تكون أمّا، وأن تكون على ذلك القدر من الجمال، هل هذا ممكن ؟ إني أفهم أبي عندما يقول أني ابنة الحب. كم يقول من هذه الأشياء ! ويراني أحمرّ، ويرى لهيب هذا الاحمرار يصّاعد إلى غاية شعري. إنه يقول ذلك، وينظر في أعماق عيني. يبتسم ويقول. كم يبدو كل ذلك قريبا وبعيدا.

والأمر ذاته حتى بالنسبة للارتفاع الذي بلغته، حيث أختبئ. وحتى الأصوات الكثيرة التي تحدث ثقوبا في الصمت. وهذا دون الحديث عن العيون التي تخترقك عندما تكون منشغلا بالنظر إلى جهة أخرى. وكذا نظرة أب غائب. لا يوجد سوى الأشجار التي لا تتعب أبدا من التواجد هنا. أنا أحبها كثيرا من أجل ذلك. ما الشيء الأكثر أهمية من...

ولكن الأمل خليق بأن يموت وأنت معه. ينبغي عندئذ معرفة الجهة التي نلتفت إليها. يمكن أن نسأل السماء. لن تكون حتما مسودة بالغيوم ؛ هذا يحدث لها، ولكن ليس أمرا محتوما. لتأخذ قطعة من السماء، صافية جدا، ونقية جدا. ضعها على قلبك، لمدة يوم على الأقل. وستدلك على الطريق.

إلى أين تؤدي هذه الطريق، تلك قضية أخرى. أما أنا فأعرف، سأقول بلا ريب للقط ولكني لن أصرخ بهذا فوق الأسطح.

نحن سجناء، نعم، سجناء قوّتنا حتى. نحن سجناء شيء ما طول الوقت. شيء إن فررنا منه فلن نذهب بعيدا جدا. سيقوم سريعا بردّك إلى سجنه ويحكم غلق الباب.

أما أنا فلن يردّني. أنا أطيح بالجبال إذا اعترضت طريقي. وعلى ذكر ذلك، فبلدي ليس فيه مثل هذه الجبال ولا أي نوع غيرها. ولكن أمي تتوفر، في بعض الأيام، على نظرة تبدو وكأنها تمر عبر قضبان سجن. ولا تجد أبدا من أين تخرج. لقد نسيتْ. إنها تصنع زنزانتها، تدير فيها المفتاح، وترمي به من الخصاص وتنسى أنها فعلت ذلك. أمي، أمي، لا تنسيْ أنك أنت. أين أنت يا أمي ؟ أنا أناديك ! أين أنت ؟

أمي رائعة، لقد حكت لي مرة أخرى : ... وها أنا متواجدة في قاعة الانتظار هذه. في أي مطار ؟ هل هو مطار برلين الشرقية ؟ كلا، إنه مطار بوزنان. الجو بارد جدا ! إنه شتاء بولونيا، محزن مثل برميل مثقوب. كنت قد قضيت بعضا منها هناك. ولكني لم أعرف، من قبل، كل هذه التيارات الهوائية ولا هذا الخيار المخلل المتجمد، ولا هذا التفاح المكدس على عربات التجار المتنقلين، ولا هذه الستائر القذرة المرفرفة على وقع باب تنفتح وتنغلق. وفي المقاهي والدكاكين يختلط على الأرض لباب بؤس بالثلج. وفي مكان آخر، في ساحات خلفية ضائعة، هناك دهليز أو دهليزان ممتلئان سمادا عطنا ؛ والروائح ذاتها، رائحة مشروب "الرينجاك"، رائحة الحلويات التي لا مفر منها ذات الزلوتيين* التي تحتفظ دائما بالطعم ذاته : طحين وسكر، عجل أو بقر. وقبعات مكوّمة من الفرو الصناعي عالية مثل الفطائر. وركح بسيط، ورجل أشقر يغني كما لو كان يريد منع الديكور من أن ينهار عليه. كانت له أسنان جد نادرة تمر من خلالها أيضا تيارات هوائية. بدأ يغني بصوت أخن نوعا ما :

أنا لا أبتغي النجوم،

*. زلوتي: عملة بولونيا

أنا لا أبتغي المحيطات،
أنا أريد بولونيا بثمار
من البطاطا كبيرة كقبضة يد.

نم يا صغيري، نم،
فأمك ذهبت إلى باريس !...

ويعلو الصوت عند "باريس !..." هذه مستعطفا يبعث الحرارة في الجميع. ويدق حذاء الفينيل الطويل الأرضية بإيقاع موحّد، ويدوس لباب الثلج والبؤس. إننا في الدفء، نحمل بأيدينا تذكرة عربات النوم السوفياتية الوردية على خط : موسكو–باريس، سفر بمنامة تم شراؤها بدولارات خضْر، ووجوه ضاحكة ذات أسنان خضر، وأسعار خضْر على أساس مائتي زلوتي مقابل دولار واحد !

نم يا صغيري، نم
فأمك ذهبت إلى باريس !...

وتنشر ماموشكا حولها ضحكة بريئة. أثناء روايتها لحكايتها، كان يعتري وجهها شيء ما. لم يعد غير شعلة فرح، ولكن ليس هذا، إنّ ما يحدث لها شيء آخر.
إذن هو مطار بوزنان. وهذه قاعة الانتظار. وأنا أحتسي

شابي. وها هي مكبرات الصوت – وهل توجد مكبرات صوت في بوزنان : أكيد لا – كلا، إنه عون من شركة النقل يعلن : "بسبب سوء الأحوال الجوية، لن تكون هناك طائرة إلى فرصوفيا اليوم. ويرجى من المسافرين التوجه إلى محطة القطار حيث سيتم استبدال تذاكرهم بتذاكر أخرى. سينطلق القطار على الساعة العاشرة والنصف."

نهضت مجموعة المسافرين، اضطربت، وطفق الجميع يجمعون أمتعتهم ويبحثون عن سيارة أجرة. أخذنا ننظر إلى الساعة بانزعاج. تناقشنا، فقدنا الصبر. أخذت على عاتقي قيادة مجموعة رجال الأعمال التي ترافقني.

ها نحن في سيارة الأجرة؛ ثم في القطار، ثم في مقصورتنا. أهدى إليّ مهندس سمين، يحمل قبعة على شاكلة بوشكين، قطعة شيكولاطة. ولكن كيف احتفظ بقبعته على رأسه : ألسنا في أماكننا داخل القطار ؟ لا ريب أنه لم يدرك ذلك بعد. أو أنني أنا من يخطئ.

وبما أنه قاسمني الشيكولاطة فنحن فعلا في مقصورتنا. وإنه لفي هذه اللحظة... كلا، كلا، أن أكون أنا أيضا في هذا القطار، هذا مستحيل، أنا لم أستبدل تذكرتي. وأنا أقضم الشيكولاطة، استعدت الأحداث، عادت حقيبة يدي إلى ذهني، حقيبتي بما في داخلها، بما في ذلك تذكرتي. ها أنا أستعيد رؤيتها وكيف علقتها على ظهر كرسيّ في قاعة الانتظار بالمطار. إنها هناك ! لقد نسيتها

هناك ! وجواز سفري، الدولارات والماركات. وداعا، يا سفري إلى باريس !

أغمضت عينيّ. لم أجرؤ على التحدث للآخرين حول الموضوع.

واصلت مضغ شيكولاطتي كما لو كانت ورقا، مطاطا أو أي شيء آخر. سأسافر هكذا، لايهم. سيكون من الجنون أن أرجو العثور على حقيبتي في مكان مماثل أو أن أتجشم الذهاب للبحث عنها. لا أحد يبصق على الدولارات، لا هنا – ولا في مكان آخر. ولكن، جواز سفري ؟

ربما يستحق الأمر أن أقوم بمحاولة رغم كل شيء.

وتحكي، وتحكي. وقد لاحظت أنها بقدر ما تحكي هذه الحكاية، وما حدث لها، بقدر ما تزيد مرة أخرى في محو الأشياء أكثر بالكلمات. لم تبق إلا الكلمات، لا نسمع إلا صوتها وإننا لننتظر فقط لنرى كيف ستقولها. لا نملك أي شيء للكلمات الملفوظة مرات كثيرة، لا نملك أي شيء. أنا أحلّق عبر رواق العربة. أقفز سلّمتين، أتخطى الرصيف وباب الخروج الذي تقف أمامه سيارة أجرة. سيارة أجرتنا، أي حظ ! ولكني لا أملك فلسا في جيبي. ولا وثائق، ولا أمتعة. والقطار ؟ ماذا لو انطلق في الأثناء ؟ ولا أي فكرة كذلك حتى عن الوقت الآن. ماذا قالوا : الانطلاق على العاشرة والنصف ؟ يا إلهي، كم يمكن أن

تكون الساعة الآن ؟ طرحت السؤال على سائق سيارة الأجرة.

— العاشرة وخمس عشرة دقيقة، أجابني بلامبالاة. أين تريد أن تذهب باني ؟

ضممت قفازيّ بين يديّ.

— إلى المطار.

هذا ما بقي لي لأضمّه. تعلقت بهذا الزوج من القفازات كما لو كانت نقودي، جواز سفري، ساعتي، الوقت الذي أملك. إنها ملكاتي. هيا، أسرع، أسرع !

— أليست باني عائدة لتوها من المطار ؟

— ينبغي العودة إلى هناك، وبسرعة من فضلك.

كان قفا السائق الأحمر ينظر إليّ من فوق كرسيه وكتفيه. قال :

— ما أسوأ هذا الجوّ.

من حسن الحظ أن المدينة صغيرة. ومن حسن الحظ أننا في صباح يوم أحد وأن الطرقات فارغة. ها أنا على الأقل أعرف أننا في يوم أحد.

بدا عريش المطار. صرخت نحو سيارة الأجرة وأنا أجري تجاه المدخل :

— انتظرني.

لا وجود لأي أحد. أين طاولتي، أين كرسيّ ؟ هناك.

لا، أبعد من ذلك. حقيبتي، لم تتحرك من مكانها ! رغم كونها مملوءة بالدولارات الجيدة. لقد نجوت. ما على القطار إلا أن يرحل... ومع ذلك فقد أسرعت إلى سيارة الأجرة، وقصصت على السائق ما حدث. وجعلت أشمّمه رائحة الدولارات. وفجأة دفع سيارته "البوبيدا" العجوز كالسهم عبر بوزنان الخالية.

وصلت إلى المحطة في الوقت المناسب. كان كافة رفاقي في السفر مذهولين. وأمام ناظريهم، بكيت، ضحكت، ونشرت نقودي على طاولة المقصورة. وأثناء تحرك القطار للسير، ارتجف بهدوء. عصفور كنا نعتقده ميتا وعاد إلى الحياة.

كان ذلك منذ مدة طويلة، قبل أن أُولد. تحكي أمي هذه المغامرة فتغرورق الدموع في عينيها. ولكنها تضحك أيضا، هذه حقيقة. كم أحبها عندما تضحك بهاتين العينين المغرورقتين وهي تميل برأسها لجهة. أمي لم تهرم كثيرا حتى تبحث عن عودة الشباب. وهي لا تفعل شيئا من أجل ذلك. إنها تحافظ على شبابها من دون ذلك. وسيأتي يوم، من يدري متى... عسى أن يكون أبعد ما يمكن. أما الآن فهي شابة جدا ! وأبي الذي يسمعها دون أن يضيّع كلمة، دون أن يحوّل عنها عيناه، عينا الذئب، لا يقول لها أبدا أنه قد سبق لها أن حكت هذه الحكاية.

أحب أن أكون وحيدة. أفضّل ذلك. لا أعلم كيف يمضي الوقت. الوقت، ببساطة لا أفكر فيه.

عندما أكون وحيدة، لا أكون وحيدة أبدا. وكل هؤلاء البنات، ريبتا، ماجا–لينا، أنيكي، وأيفا، لا أحتاجهن أبدا. في اليوم السابق، وبحجة أنهن رفيقاتي في القسم، أرادت أمي أن يأتين للمجة. لم أرد ذلك، أنا. فنحن في عطلة.

أفضّل، عن كل ذلك، مرافقة ما أجد في الحديقة، الأشجار في المقام الأول. أحيانا ألتقي فيها بهؤلاء الغرباء، الغجريين، أحيانا وليس دائما. وبما أني لا أخاف منهم، ولا من أي غريب، فنحن أصدقاء. فهم يعلمونني أشياءًا، وأنا أعلمهم أخرى، وكل أنواع الحكايات تجوز في حقهم. أسارع برواية حكاياتي لأنه لا وقت لنا معهم أبدا لإضافة حكايات جديدة.

وعندما لا يكون أبي معنا، فإنهم لا يغيبون عنا أبدا، ولا ينسون الحضور مطلقا، دون أن أذهب للبحث عنهم.

يكفي أن أنتظر فهم لا ينسون. أما الآن وهو معنا، فهم قليلا ما يظهرون. هل يعدّ هو الآخر غجريا من فرط الذهاب والإيّاب، وربما أكثر غجرية من الآخرين : هؤلاء الذين لن نعرفهم، الذين لن نلتقي بهم أبدا ؟ ربما. سنرى.

يا إلهي، كلما ذهب يفيض العالم بالأشياء، بالناس الذين لم نشأ رؤيتهم ! إنه الفراغ المتبقي مما هو مملوء أكثر من اللزوم. لا يمكنني القول بأني وحيدة مع غربائي الغجر الذين يظهرون حينئذ. ولكن، وفي الوقت ذاته، تأخذ أمي في الدوران دون أن تعرف إلى أي جهة هي ذاهبة. ثم تبدو أكثر وحدة من جديد، عندما لا تقوم بغير المكوث جالسة على كرسي، ويداها متشابكتان ؛ جالسة تفكر، كما لو كانت قد أضاعت لا ندري ماذا وهي تحاول كل الوقت أن تتذكره، كما لو كانت هي بذاتها قد ضاعت ولم تعد تعرف نفسها أبدا، ولا تجد نفسها في هذا العالم، عالم ضائع مع أبي، معها هي، معي أنا، وكل العالم. وعند رؤيتها على تلك الحال، أحس في فمي بطعم عنب الثعلب الفجّ.

أجر قدميّ في الحديقة دون أن أعرف كثيرا ما الذي أتمنى أن أكتشفه. هناك ممرات بينها شجيرات ورد، وأدغال وعرة، وأشجار صنوبر، وأشجار سند، وساحات عشب قصير، حديقة تغوص في الغابة المترامية الأطراف التي تضيع في طرف الدنيا. الحديقة تعرف أنها لي، أما الغابة فلا تعرف ذلك. ومع هذه الطرقات التي يقود أحدها إلى

الآخر، نحن مثل الشخص الذي... ينتظر ملاقاة نفسه، وهو ما يبحث عنه كل واحد منا.

وفي انتظار تلك اللحظة، يتمدد النهار دون انتهاء، الهدوء لا ينتهي، والصيف لا ينتهي. كل شيء لا ينتهي. السكون وزقزقة العصافير. والزمن كذلك. وهذا لا يحدث إلا من حين لآخر. وعلى رمل الممرات، تكتشف آثار خطوات، تجهل مَن صاحبها، ولكنها لا تنتهي هي الأخرى. وتقول في قرارة نفسك : "إذن هي ليست لي." ولكن لمن غيري ؟ إن غربائي، عندما يجيئون، لا يتركون أي أثر أبدا، حتى لو كانوا يعرفون أين يتواجدون، عندي أنا، وأنهم هنا لنلعب معا، ونغني معا.

أحيانا أختبئ خلف شجرة صنوبر ضخمة، وأصرخ : "أمسكوني إذن، إن استطعتم !" لأرى فقط إن كان هؤلاء الأجانب الآخرين سيظهرون.

إن أفضل ما نحبه، في الأخير، أنا والغجر، هو أن نحكي حكايات. حكايات غريبة لدرجة إسقاطك على مؤخرتك محمحما مثل أحصنة غارقة. ترتفع في بعض الأيام ضحكاتنا عاليا جدا لدرجة خروج أمي من البيت متسائلة ومنزعجة :

— ليلي بال، ماذا يحدث لك لتصرخي من فرط الضحك وحدك ؟ كأنك مجنونة.

لست مجنونة يا أمي. أنت لا تدرين. لا تدرين شيئا. أضع يدي على فمي، وأخنق الغليان الكبير الذي لا يزال يتغلغل في حلقي.

تتردد برهة على عتبة الباب، ثم تعود للدخول وهي أشبه بالمعذّبة. لقد تجاوزت السن.

أما أنا والغجر، فنكتفي بالهمس، بكل حذر، ونحن خلف شجيرات الورد التي تحمينا، صه. صه. صه.

في هذا التوقيت من الصيف، لا يكون الليل ليلا طول الليل. وقبل أن يستيقظ أي واحد، أكون قد نهضت وتسللت ! أنا لا أنتظر الصباح لكي أخرج، وأذهب لملاقاة الغجر، والجنيات المتجليات كضوء النهار. يكون الكل قد سبقني إلى الحديقة عندما أصل إليها. يدورون بين الأشجار وهم صامتون، ويندفعون دون أن يوقظوا هذا الليل الحالم وهو مفتّح العينين. وأثناء تقاطعهم وتسابقهم، أدخل أنا أيضا في الحلقة بخفة وبقدمين حافيتين. فلا أعود أحس بالأرض، ولا أعود أحس بجسدي.

وفي البيت، ينام من أحب. أرقص لهما، لأجل إنقاذهما من كل المخاطر، وحتى لا يصنعا بذاتهما شقاءهما الشخصي. يتلألأ الليل جميلا وأنا أفكر فيهما. أفكر وأرقص، مثل دوامة هواء، سريعا، سريعا، قبل أن تدق ساعة النهار، وقبل أن يشرع الفجر في تحريك زغب أجنحته.

تعلق السماء بُحيرتها الباهتة عاليا فوق الليل تماما. أرفع وجهي لأتلقى برودتها وعفوها. وأطلب العفو لذويّ أيضا. يمكن للنهار أن يولد بعد ذلك، أقل بياضا في البداية، ثم أكثر بياضا في الأطراف. وستكون عودة النظر لعيون مفتّحة مسبقا، ويكون النور كله أشعث منتفشا باللواذع، وتشرق الشمس بتمامها على الحديقة كما على البيت الذي لم يعد ينام فيه أحد.

أنا أرقص الآن. وسيستمر الليل طالما أنا أرقص. ولن يهبط الليل في أي لحظة من هذه الليلة التي لا ليل فيها. لأرقص حتى أفقد صوابي. لم يعد لي اسم. لم أعد أسَمّى. إن الاسم هو المصباح الذي ينير وجهك، ولكن نوره يمكن أن يخفي حقيقة وجهك ولا يظهر غير القناع. من هو الأغلب فيّ، هل هو اسمي، أم هو أنا ؟ عندما أحدّث نفسي، لا أدعو نفسي، لا أقول : ليلي بال، أنا أكلمك. لست بحاجة إلى اسم لأدرك أني أحدث نفسي. أنا بدون اسم. أنا لست غير أنا.

ولكنها، من جهة أخرى، ليلة مهددة بغموضها، بهدوئها الكبير جدا، وبياضها. أنت التي لا اسم لك، أنت، ليلي بال، ارقصي وابتسمي للحفلة الصامتة المنفردة. إنك تشعرين أنك تتنفسين قليلا في الفراغ، وهذا يقطع نفسك، وأذنك ترصد الأبواق التي ستنفجر من كل مكان لو كانت تستطيع ذلك. إنه انتظار مخيّب دائما.

ينبغي أن لا يخاف أي شيء من الآخر. أيتها المياه الحية، إن نورك سينشأ بذاته، لا أبيض ولا داكنا، إلى حين يأتي النهار ليطل برأسه. عندئذ سترسلين له إشارات وداع في الوقت الذي تتصاعد فيه أغاني العصافير في الأشجار إلى غاية رؤوسها المشتعلة بالشمس. أسرعي قبل دوار النور الجديد. سارعي بالرقص أكثر فأكثر. اذهبي بعيدا في الزمن، ليلي بال، بعيدا على ضفافه وبادلي ماءه الصافي نظرة بنظرة. ستأتمنك على سرّ. وسيكون لك وحدك.

ثم عودي.

والآن أعود، وأجد طرق الأرض. سيطلع النهار قريبا. أنظر إلى كل شيء وكل شيء ساكن. أواصل، أنظر، ويستمر السكون. لا يمكن أن نتوقع من أيّ مكان سينبثق أول صوت، وما تكون الورقة الأولى التي تتحرك. إني أكثر شقاءًا بدلا من السعادة.

كانت ترسم في خليط الرمل والحصى، أمام البيت تماما، دائرة كبيرة بواسطة سنّ حذائها وهي تدور بمنهجية منتظمة، وشعرها مسدل على وجهها، وهو العمل الذي أتمّته بنجاح سريع.

وبعد ذلك...

وبعد ؟ رفعت رأسها، هزت شعرها لتزيحه عن وجهها، رمقتني بنظرة ضاحكة. أقدمت بتلك النظرة، وسحبتني من اليد. جعلتني أقطع المحيط الذي كانت قد حددته بخط متواصل، وضعتني بكل عناية في الوسط. وبعد ذلك خرجت لتقف على المحيط الدائري.

وقفت ببساطة هناك وأخذت تنظر إليّ مليا، نظرة رضى عن شيء ثمين تمكنت أخيرا من وضعه في مأمن. وأعترف فعلا أني أحسست بالأمان كما لم يحدث لي ذلك من قبل أبدا، أو نادرا ما حدث لي.

وبعد، ومن حافة الدائرة التي تلامس قدميها المضمومتين، أمرتني :

— خذ دفترك يا أبي.

دون مناقشة، سحبت من أحد جيوبي الدفتر الذي تعودت أن أخربش عليه كل أنواع الملاحظات : أي شيء، مفكرة تافهة.

— والآن، أكتب ما سأقوله لك.

ارتدت فستانها الأبيض
لا لتتزوج
بل من أجل أن تنام.

أتممت الكتابة. بقيت ألاحظ وأنتظر.

— هل انتهيت ؟

أشرت برأسي أن نعم.

— أضف هذا :

لها أربع أقدام
ولكنها لا تمشي.

كانت هي من انتظر هذه المرة. رفعتُ عينيّ عن دفتري، وبسرعة أردفت :

— أكتب أيضا.

إنهما اثنتان
تجريان خلف الزمن.

ولكن الزمن
أسرع منهما جريا.

كانت، وهي تملي عليّ هذه الكلمات الكهنوتية، تدور حول الدائرة مسجّلة وقفات قصيرة. وفي إحداها، عاجلتني من جديد :

— أكتب هذا أيضا.

له أسنان
ولكنه لا يعض بها.

يأخذك من الشعر
ولا تقول شيئا.

كان دورانها، وهي تتفسّح في حركة حلزونية، يتسع

أكثر فأكثر، ومن المكان الذي تصل إليه، تطلب ليلي بال :

— أعد عليّ الآن قراءة ما كتبت.

أعيد القراءة.

قالت بشيء من الندم :

— حسنا.

ثم أخبرتني :

— انتهينا، يمكنك أن تخرج من هناك.

— أخرج ؟

كان طوافها الدائري قد أقصاها بعيدا جدا. ومن مكانها نظرت إليّ وشجعتني بهزات صغيرة من رأسها :

— أجل. يمكنك الخروج.

أجل : سرعان ما قيلت، كم أريد ذلك. لقد دخلت الدائرة بمساعدتك يا بنيّتي. كيف يمكنني الخروج منها بمفردي ؟ هناك قوة لا تقهر تمسكني كسجين هناك، شيء ما كنت عاجزا إزاءه. شعلة كنت سأحترق بقربها. جدار صُنع من هواء، غير مرئي، صُنع من موت.

انتزعت من داخلي هذا النداء :

— تعالي أعطني يدك، ليلي بال. ينبغي عليك أنت أيضا أن تخلّصيني من هنا. أنت فقط من تستطيع فعل ذلك.

مددت ذراعي نحوها، ارتفع حاجباها لحد اختفائهما تحت هدبيها، وانفرجت عيناها على سعتهما، ورأيت نورا

يرقص فيهما كما تكون عندما يفرحها شيء ما.

— كيف ! لا يمكنك أن تخرج أنت بنفسك ؟

— كلا.

— أي لعبة تلعب يا أبي ؟

وأسرعت، وقهقهاتها تعمّ الفضاء، وسقطت بين أحضاني.

تم إخراجي من الدائرة. ودمي لا يزال يدمدم بصوت يشبه صوت سيل بعيد.

ولكن ها أنا قد تحررت. واسترجعت أنفاسي نهائيا.

قلت لها :

— والآن جاء دورك ستأخذين مكاني وستسمعين ما سأقول لك.

امتثلتْ هي، ووقفت أنا على حافة الدائرة كما فعلت هي ذاتها في وقت سابق.

أعلنت :

— إن كنت تريدين دائما رؤية النور، ولا ترين الظلام أبدا، اجري بدون توقف إلى أبعد نقطة باتجاه المغيب ؛ لأن الشمس لا تغيب هناك بعيدا في الغرب، إلا لترفع رأسها من جديد. فبعيدا إلى الغرب هناك الشرق. الشرق السماوي.

— كم هو جميل يا أبي ! كم هو جميل، ما تقول.

كانت ليلي بال تصفق وهي تقفز في مكانها. ثم هدأت.

قالت :

— ولكن يا أبي، ينبغي أن لا نتوقف أبدا إن كنا نريد رؤية النور طول الوقت.

— لا، أبدا.

بعد برهة قصيرة من الصمت، طلبت، وعلامة الدهشة تعلو محياها كأنها في حلم، ونظرها مبهور بالنور الأزلي الذي كانت تلمحه في تلك الأثناء :

— ماذا لو حاولنا ذات يوم ؟

— لِمَ لا ؟

تفاجأت أنا أيضا شخصيا بهذه الفكرة. بشمس لا تغمض عينيها أبدا، وفي مغرب قد يكون هو المشرق.

وأضفت، شارحا الرؤية :

— أواصل : هل ينبغي أن أسألك عن اسمك ؟ لا فائدة من ذلك. هل ينبغي أن أسألك عن سنّك ؟ لا فائدة أيضا. أين تسكنين ؟ من أين جئت ؟ لا فائدة إطلاقا. ماذا يمكن أن نقول عن الشخص الذي نعرفه أفضل معرفة ؟ لا شيء. وعن الشخص الذي لا نعرف عنه شيئا؟ لا شيء أيضا. يمكن أن ننظر لهذا وذاك. أنا أنظر إليك. تفعلين ما ينبغي أن تفعليه. وكذلك الشخص الذي لا نعرفه، فهو لا يفعل إلا ما ينبغي عليه أن يفعله.

حاولت ليلي بال أن تحاجج :

— ولكن يا أبي...

ثم توقفت عند...، وعبست ملامحها. كان الجهد، الذي بذلته في التفكير، واضحا إن لم يكن مؤلما.

ولما لم تضف أي كلمة، أغريت نفسي، أنا، بالصبر قليلا.

وفي الأخير، تمتمت :

— يا إلهي، هل يكون الأمر دائما، دائما... هكذا ؟ ومتى يتوقف ذلك ؟ متى أكفّ عن أن أكون هذا الشخص الذي ننظر إليه كل الوقت وهو يفعل ما ينبغي أن يفعل، حتى لو كنت شخصا آخر ؟

كانت، حسبما لاحظت جيدا، على وشك البكاء. ولكنها لم تكن متوجهة إليّ أنا.

وبمجرد التفكير، أخذت على عاتقي أن أجيبها :

— عندما تخرجين من هذه الدائرة وتدخلين في مرحلة الشيخوخة. إننا لا نشيخ أبدا ونحن مسجونون داخل دائرة.

وبوثبة واحدة، قفزت فوق الحد الذي خطته بنفسها، وليس من طرف آخر، لتأتي لاهثة تماما وترتمي عليّ.

— آه يا أبي ! آه يا أبي !

بعد التحليق، عادت لتسقط عليّ هكذا، بدون قوة. رفعتها. فحصتها. بدا لي أني لم أكن قد رأيتها قبل هذا

اليوم. ولكن من أين جاءتني هذه الطفلة الآن ؟ من أي منفى ؟ من أي غرب مظلم ؟

في قلب الدائرة، أوقفَنا الوجه المرعب أمامه، وتأمّلَنا لبعض الثواني. لو أضاف ثانية واحدة لكانت ثانية زائدة.

ودون أن نتشاور، وباتفاق ضمني، ليلي بال من جهتها، وأنا من جهتي، أخذنا نمحو بقدمينا محيط الدائرة المرسوم على خليط الحصى والرمل. عن قريب لن يبقى منها أثر. ولن نكون نحن مجبرين على الاتفاق لعمل شيء بذاته، بالحركة ذاتها.

نتسلق الأشجار، نصعد على إحداها، وعندما نصبح غير قادرين على ذلك؛ عندما نكون بحاجة إلى من يساعدنا، وأن لا أحد يأتي ليقدم لنا هذه المساعدة : نضع حياتنا – عندئذ – فوق نظر الآخرين.

ستكون هناك – حسب اعتقادي – طول الوقت هذه الحشود التي تراقبك. حشود من الناس. حشود من الأشياء. إن النهار جدار نار، أبيض عار. أضغط حلقي بيديّ الإثنتين كي لا أختنق. أحاول أن أعود إلى البلد من حيث خرجت دون أن أريد ذلك. ففي هذا البلد هناك دائما ملجأ بالنسبة لي.

ولكن هناك كذلك الحلم الذي يتحول إلى كابوس. نرى هذا عندما نرى كثيرا من الناس والأشياء ولا نرى أنفسنا بينهم. عندما نسمعهم يتكلمون دون أن يروا بعضهم بعضا، ودون أن يسمع الواحد نفسه. أي رعب هذا ! فالحياة تغدو مستحيلة الاحتمال والحال أنها أساسا غير محتملة تماما.

كيكي، لم يعجبه فستاني الجديد، رغم أن أبي قد استقدمه لي من باريس. لقد صرح كيكي لي بذلك من خلف شجيرات الورد التي تحيط بطاولة الحديقة ومقاعدها. لم يجرؤ على الظهور. لقد قال : إنه ليس جميلا. لقد قالها. ولكنه كاذب. إنه فستان جميل جدا، فستان أزرق تزين صدره زهرة نسرين.

أنا لا أفهم ما يحدث معه. منذ مدّة أصبح يكره كل شيء فيّ. كلّ ما يطيب لي. هذا ما يمتعه الآن : أن يعكر صفوي كلّما أمكنه ذلك.

أيكون قد أصبح غيورا ؟ وأنا التي أفعل كل ما ينبغي لأكون حلوة في نظره ! لم يكن يبدو من قبل كما يريد أن يكون الآن، هذا لو كان – على الأقل – يعرف ما يريد أن يكون.

فمنذ مدّة، على سبيل المثال، وهو يرفض السير بجانبي عندما نخرج مع أمي، أو مع أبي، أو معهما معا. إنه يظل بعيدا في الخلف، أو في الأمام وهو يلقي نظرات سُفلية كما لو كان يعاتب كل واحد منّا، وأنا الأولى منهما. وهو الذي كان ظريفا جدّا وخلوقا جدّا. كان ملاكا وجعل من نفسه شيطانا، إنه يتحدى العالم، إنه يحتقرني. فعلا، إن الشيطان دخل في جلده، ومن تحت هذا الجلد لم يعد يعرف إلاّ أن يلعب معي أخبث الأدوار.

لأنه لا يستطيع أن يفعل لي شيئا، ولا أن يخفي عني سبب ذلك. لمَ هذه الطريقة التي تنتابه فيلعب معي دور

الشبح، فيبدو أمامك حينا ثم يختفي فجأة، وحتى لو ناديته أو بحثت عنه فإنه لا يفعل أي شيء. ولماذا يتبعني أحيانا، ويختفي مرّة أخرى دون أن يظهر للعيان، ثم يضحك في هدوء ما استطاع إلى ذلك سبيلا. أي طرق هذه : فأنا أبحث من حولي عمن يضحك عليّ فعلا، ولكن لا أثر لكيكي. هناك ضحكات وعطسات، أجل. وبقدر ما بحثت والتفتّ بقدر ما ازدادت هذه الضحكات وهذه العطسات، ولا أصل أبدا إلى الإمساك به متلبسا.

إذا لم يكن يرغب فيّ ولا في مرافقتي، لماذا لا يفارقني قيد خطوة واحدة ؟ أقسم لك أن ذلك غير لطيف في بعض الأحيان.

ماذا يدبر في هذه اللحظة بالذات ؟ لقد علم أني كنت معلّقة في هذه الشجرة. هذا غير مدهش : إنه يعرف كل شيء، ويرى كل شيء. لقد وصل إذن، لم يقل شيئا، اندفع برأسه على جذع الشجرة وأخذ يضربها على أمل ربما أن يُسقط الشجرة. كما لو كان ثورا أو وحشا قادرا على ذلك، ومرعبا تماما، وهو الأحمق الهزيل.

أكيد أن الشجرة تهتز من شدة ضربات كيكي، ولكنها تتماسك جيدا وتظل ثابتة في مكانها. وكيكي لا يكف عن الضرب برأسه رغم أني أصرخ عليه ليتوقف. ولكن هذا الأحمق يواصل الضرب، لامباليا كما لو كنت أخاطب

أخرس، يواصل هجومه على الشجرة التي لا تتحرك وإن اهتزت قليلا.

أنا أدرك ما يريد : يريد أن يفجّر رأسه كحبة الجوز. صرخت فيه بقوة أكبر ليتوقف في الأخير، صرخت أقوى فأقوى. ولكن لا سبيل لأن يسمع. إنه لا يسمع غير رأسه التي تدق على الشجرة. وهل من مزيد !

قفزت إلى الأرض، ألقيت نفسي عليه لأقيده. تصورت أني أمسكته بين يديّ. ولكن لا شيء فقد أغلقتهما على لا شيء، لقد اختفى. الأحمق !

إنه لم يهرب مني، في الواقع، إلا لينتقل إلى شجرة أخرى ويهجم عليها. هذه هي اللعبة التي ابتدعها هذا الصباح. وها أنا أشاهده يتوجه بضربة قوية جدّا لدرجة الارتداد والسقوط أرضا على عجزه. أما أنا فقد ضحكت، لأني لا أستطيع أن أمتنع عن ذلك. وهو ما لم يمنعه هو الآخر من النهوض مجددا وإعادة الكرّة وهو ثائر كالمسعور.

كانت تتنامى قوته كما لم تكن من قبل أبدا، فيضرب الشجرة ولكن الشجرة لا تتحرك. ويواصل الضرب فينال منه ذلك.

عند ذلك، جريت ووضعت نفسي بينه وبين الشجرة. مرّ إلى الجانب الآخر، وواصل الضرب برأسه بكل قوة. شيء رهيب. لم يندّ عنه أي صوت، وصارت الشجرة ترد عليه ضرباته وأنا أصرخ : "كفى ! كفى ! يكفي هذا !"

ولكن كان كمن يريد أن يقلع هذه الشجرة. إنه لمجنون إن كان يتصور أنه بإمكانه فعل ذلك. فالشجرة تنتصب هنا لامبالية. وبالأحرى على كيكي، إن أراد أن يدمّر نفسه، أن يستمر، فلن يجد أفضل من ذلك.

لا ينبغي لأي شخص أن يفعل هذا، فلا حق لأحد أن يؤذي نفسه، فضلا عن إرادة الضرر بالآخرين على أي حال. وكيكي يواصل بكل ما أوتي من قوة. أخذت قطرات صغيرة من الدم تسيل على جبينه، وتنزل وتقطر على عينيه. ثم ضربة أخرى ويسقط خائرا.

اندفعت نحوه. نهض قبل أن أصل إليه. تصورت للحظة أنه سيعود إلى فعلته، إلى مواصلة ضرب الشجرة. ولكنه فرّ هاربا. اختفى كما يحسن الاختفاء عندما يريد، وفي المكان الذي لا يمكن لأحد أن يعثر عليه فيه، مهما كان ماكرا.

لن أراه إطلاقا، أنا متأكّدة.

احتفظت بهمّي لنفسي. فما جدوى أن نظهر ألمنا ؟ أين هو الآن ؟ ماذا سأغدو، ماذا سيصير العالم معه من دونه ؟ فكل ما هو موجود من حولنا سيضيع بالنسبة إليه : هذه الأشجار، وزرقة السماء على شعرها. الأزهار الضائعة. ألوانها الجميلة الضائعة. حيويتها، كبرياءها. وكل حنان الأرض. لماذا ؟ ماذا يريد أن يملك فوق ذلك ؟ أي جنون سكن رأسه المتخشّبة ؟

تسلقت الشجرة ذاتها، شجرتي، وبقيت في الانتظار. انتظرت أن يشرح لي بكلماته الخشبية لماذا، ومن أين أتى كل ذلك. ما هو، كيف، لماذا، إلخ. إن كان يدرك ما حدث، وإن كان ذلك شيء يمكن أن يقال. ينبغي أن يدرك، كان ينبغي أن يدرك، لأن ذلك من الممكن أن يحدث مجدّدا.

توقفت عن التفكير برهة. سأبقى هادئة. ربما يكون أفضل هكذا. أحس دائما كما لو كنت مرفوعة بأمواج بحرية ومعلّقة في الأعلى وغير مطمئنة أبدا لكل ما أفترض أنه يتحرك في الأسفل، والذي يوشك أن يتدفق وأن يكنس العالم. اضطربت كل فراشات أفكاري حول رأسي. هل تستحق كل هذه الأشياء فعلا أن تحدث ؟ أيّ عناء ! يبدو لي أني لن أرى شيئا يقع دون أن أصاب بالبلبلة.

هل ينبغي أن أمرّ، مغمضة العينين، عبر كل شيء ؟ مغمضة العينين، ومسدودة الأذنين ؟ إن أمي تحب أبي بشغف كبير، وأبي يبادلها ذلك جيدا. ومع ذلك فهما لا يتفقان على أي شيء. أنا أعرف ذلك. وكل واحد يتفادى قول هذا للآخر، وأعتقد أنهما لا يعترفان بذلك حتى لنفسيهما.

يا إلهي، يا إلهي.

أمضي مغمضة العينين، مسدودة الأذنين، مضمومة الفم، وأقول أن الوقت هو الذي يمضي والهمّ معه ؟

جريت في كل الاتجاهات للعثور على طريق مجهول. وربما للعثور على شخص ما على هذه الطريق، وربما شخص ضائع. وماذا لو كنت أنا ضائعة. عدت أدراجي، لم أعثر على أي شيء، سأحاول في اتجاه آخر. كما لو كنا نريد العودة إلى حلم ضائع، والدخول فيه من جديد : لا نبحث من أين ندخله وأثناء بحثنا ننسى ما كان ضائعا. إن سكون هذه الأشجار، أشجار السند، سكون مدهش. لا أرى جيّدا ما ينبغي أن نفكر فيه. إنه سكون لا يمكن الاطمئنان إليه. فالريح مسموعة جدا بين هبّتين. وأنا لا أطمئن لذلك. أنصت وأترصّد، وأنا متوقفة، لا أطمئن لذلك أبدا.

يقول أبي : "إذا لم تكن الحقيقة جدارا يتحتم علينا أن نهاجمه باللكمات، وبالرأس، وبالمخالب وبكل ما نملك للضرب والتكسير، فإنها ليست الحقيقة." وقد كان الأمر كذلك بالنسبة لكيكي، وكان ذلك ما جعله يتصارع مع

تلك الشجرة. كان إذن يشك في أنّ شجرة يمكن أن تكون أيضا حقيقة، يمكن أن تثبت طويلا لتكون حقيقة.

وأنا، أين حقيقتي ؟ هل هي في نوري وفي كل النور الذي ترسله الشمس، شيء ما عارٍ، ونحن أفضل كساء بعرينا مما نكون عليه بملابسنا. هذا الشيء المجهول الذي لا يسترد أنفاسه الآن، بل يمسكها ويحتفظ بها معلّقة. وماذا لو كان جدارا، سيكون الجدار الذي يفتح لك قلبه.

هي في هذه اللحظة نور يبتسم ويلمع بمساحته كلها. أدري الآن ما أبحث عنه، ويدري معي نظري وقلبي. وكل ذلك يبعث في كياني الرقة والبهاء. لم أعد أمشي، ولا ألمس الأرض بقدميّ، أنا أطير. يقول أبي أني عين في قلب. إنه يفهم نفسه، وأنا أفهمه هو.

كنت أقفز جذلى كجَدْي، وأجري دون أن أتعب. وإن توقفت فجأة واعتدلت مستقيمة، فذلك لكي أمنح ظلي الوقت الكافي للّحاق بي. أنا سعيدة وهو كذلك حسبما أفترض. إني أحس حضوره خلف ظهري. إنه مثلي لا يتحرك، ولا يقول شيئا. ولكن ما أن أحرك خنصري حتى يحرك هو الآخر خنصره، وما أن أميل يميناً حتى يفعل الشيء ذاته، وما أنَ أندفع في سباقي عبر الحديقة حتى يندفع في السباق ذاته. أنا لا أرى ذلك، بل أحزره.

سيكون مثل أنا أخرى بأجنحة، وتحلّق على مقربة من سطح الأرض. وإلا فأنا لا أملك سوى قدميّ.

أنا متوقفة تماما، لا ألتفت، فأنا لا أريد أن أكوّن لديه انطباعا بأني أتجسس عليه. بقيت أنا هنا وبقي هو هناك. وعموما فليس لديّ أيّ شيء أقوله له. ولا أعتقد أني أخشى شيئا كبيرا منه. هل يصبح أنا تماما عندما أموت أو عندما أكون على وشك الموت ؟ هل أشهد ذلك ذات يوم ؟ أبدا ؟ لن أكون بحاجة عندئذ لأنادي أيّا كان لنجدتي، سأنسى جسدي في فراشه وسأرحل معه. ولكن، ولمرّة وحيدة، لن أكون في الأمام وهو في الخلف. بل سنذهب جنبا إلى جنب. سنذهب عبر طرق منسية، طرق الحلم الذي بحثنا عن تذكّره. ذلك الذي كنا قد نسيناه والذي نندهش اليوم لكوننا قد نسيناه بتلك السهولة. سأنظر إليه وسأعلم أني سلكت الطريق السليمة وسأستعيد أنفاسي لأذهب حيث ينبغي أن يذهب كل واحد، حيث يُنتظر كل واحد.

لم تتوقف العصافير عن لعب دور المجانين خلال هذا الوقت. إنها تجعد عقيصتها ولكن بغرض الضحك. وتلعب لعبة تخويف بعضها بعضا وتبعث زقزقات كما لو كانت خائفة فعلا. وأنا أحلّق خلفك، أحلّق فوقك. وقلبي يفعل مثل ذلك، يطير معها، ويصيح أيضا. وهو يفعل ذلك من أجل كل هؤلاء الذين لا صوت لهم وحتى من أجل أولئك الذين يتوفرون على أصوات. وهو ينظر من أجل كل هؤلاء الذين يعيشون على الجهة الأخرى وليس لهم عيون ومن أجل من لهم عيون أيضا. يمكن أن نثق فيه. أنا أعرف ماذا يرى : من هو مدعاة للشكوى، من هو أعمى،

ومن هو أبكم، ومن يكف فجأة عن أن يكون كذلك وأن لا يتحول الأمر إلى إشفاق. أنا مثله، أخت وأخ كل هؤلاء : أشجار، أزهار، ظلال، أنوار ودواب مثل القنافد، وحتى الصخور. نعم حتى الصخور، ولا أخشى قول ذلك.

وعلى العموم فأنا لا أخاف أي شيء. لأني أنا أيضا الأخت والأخ لذاتي. سنُمضي كل حياتنا معا، ربما لمائة عام. وهي فكرة لا تزعجني : هذه الأيدي، هذه الأرجل، هذا الجسد، كل هذا الوقت معا، لمائة عام ! مع إخلاص الواحد للآخر. أنا مشبعة بالحب لهذه الأشياء، لهذا الأخ وهذه الأخت اللّذين هما أنا. يمكنني حتى أن أقول أن هذا أجمل ما أجد.

إن هذه الأخت وهذا الأخ المستعدين دوما لمساندتك ولحبك، خاصة في المساء عندما تعود الأصوات للسقوط ولتشكل مستنقعا مظلما هي أول من يغرق فيه، وعلى إثر ذلك العالم بكل أثاث منازله، وسياراته، ونباتاته وأناسه، عدا السماء والنجوم التي تقوم بالتسديد فيه. وتكتشف هذه النجوم كم هي جميلة في حين تنبثق من الظلام أصوات أخرى لا يعرفها أحد. ونتساءل عن هذه إن لم تكن تسير على الرماد، وعن الليل الذي يرافقها إن لم يكن ماء آخر أكثر ظلمة يجرّها خلفه مثل الرفل، ويجرّ خلفها تماما كل بحيرات البلد، وكم هي كثيرة ! مع بعضها، إن لم تذهب لتتأمل السماء ونجومها كالمرآة التي تشاهد نفسها في مرآة أخرى. ومن ثم لا ندري من هو من.

كم شاهدت من البحيرات ! إنها تنظر إليك بحزن أولئك الذين لا يستطيعون لك أي شيء، من الذي يمكنه القول ما هي الصورة التي كونتها عنا، وهل لازالت تحتفظ بتلك الذكريات أم أنها قد نسيتها؟

أما أبي فلا بحيرات في بلده، بل فيه جبال.

— إنه يعجّ بالجبال، قال.

أما نحن فليس لدينا واحد منها. نحن لا نعرف حتى ما هو الجبل.

— إنه أعلى من كل شيء، يقول. وهو أعلى ما يمكن أن يصمد واقفا ويملأ المكان.

أما بحيراتنا نحن فتظل نائمة دائما، ولكنها كذلك تأخذ مكانا، كما يملأ الفراغ المكان، مكانا لا بأس به. عندنا يوجد كل الفراغ الذي تريد، كل المكان. وهذه البحيرات التي هي عبارة عن ضوء كبير نخشى أن نراها تنكسر.

— لا يستطيع أي شيء أن يكسر الجبل. إنه صلب، وكثيف، ومعتم، يقول أبي.

أما بحيراتنا فهي سكون من الماء والنور.

— إن الجبل صوت كبير عظيم، ولكنه دون سمع الأذن.

كنت أسمعه يتحدث عن جباله فأتصور أني أسمع صوتها فأفكر في جلال السكون، في جلال نور بحيراتنا. وماذا لو أضفنا جلال ثلوجنا...

ولكن هل يكتب لي أن أرى جبلا وإلى أي شيء يشبه، مرّة واحدة على الأقل ؟

— وفيما وراء الجبال، يقول أبي، هناك الصحراء.

الصحراء ؟

— الصحراء، يقول أبي، هي الصحراء. رمل ولا شيء غير الرمل.

عندما يحدّثني أبي بهذه الطريقة، أمسك يده وأضعها على خدّي. التماس صلب ولكنه حلو. أحس حرارة جلده، حرارة هذه الصحراء، ولكن أيضا أحس برودة جلدي التي هي برودة ثلوجنا. أنا أحتفظ بها في داخلي للأوقات التي لا يكون فيها معنا، فلا نحتاج للكلام بعد ذلك.

إنها تدخل الغرفة العلوية التي أشتغل فيها، تدخل بهيئة طفل الجُزر، مكلّلة بالأزهار التي ليست سوى بتلات مذهبة كانت قد بُذرت – سلفا – في الحديقة من طرف أشجار السند. تقدمتْ نحوي. رفعتُ رأسي فرأيتها تتقدم.

لاحظت للوهلة الأولى أنها، بدل أن تظفر إكليلا، قامت بخياطة الأوراق المستديرة مع بعضها لتجعل منها تسريحة. لم أتفاجأ، فحبّها للتمويه أمر معروف منذ زمن طويل. ابتسمت تحت قبعتها الذهبية ولم تتفوّه بكلمة. كانت واقفة هنا تماما، وتبتسم، ابنة الغاب، الصيّادة التائهة بيننا.

من خلال النوافذ، وبتواطؤ تام، أخذت الطبيعة والغابة تشيران لها أن لا، لقد أخطأت، لقد دخلت هنا دون أن تنتبه. وطفقت كل هذه الخضرة ترتعد من أجلها. وصفّر عصفور بشغف منبّها إياها بدون شك : "إنك عند أناس خارج عنصرك !" من المحتمل أنه كان يتحدث هكذا في الجنة قبل أن يذهب الرجال ويعكّروا هواءها.

أخيرا، قامت، وهي مبتسمة متحفظة، وبشيء من الوجل، بطرح سؤالها الخطير كما سيتضح لي فيما بعد، والذي دفعها للمجيء عندي للبحث عن إجابة له :

— أبي، هل حقا أننا لا نوجد قبل أن يريد شخص ما ذلك ؟

سؤال جدّي بالفعل.

— هذا حق. كيف وصلت إلى...

تجاهلت كلامي، وواصلت فكرتها.

— إذن، أنا موجودة لأنك أنت أردت ذلك.

— أردت ذلك بشدة، ليلي بال.

— ولكن أنا الآن موجودة إلى الأبد. حتى لو متّ. لن تستطيع أن تعيدني من حيث أتيت.

— كلا، وليست لي نية فعل ذلك أبدا.

— أرجو أن لا تكون قد أردت أن يكون لك صنف آخر من البنات، بعدما رأيتني.

— لم أفكر في ذلك مطلقا. لم أرد غيرك أنت، لم أرد أيّ أخرى.

— في جميع الحالات، إن كنت قد أخطأت، فقد تأخر الوقت.

— أنت تقريبا الشيء الوحيد الذي لم أخطئ فيه في وجودي.

— هل هي حقيقية فعلا، هذه الكذبة ؟

— إنها كلمة شرف.

— حسنا.

كانت النظرة التي ألقتها عليّ وهي تنطق هذه الكلمات الأخيرة أشبه بأمانة تعْهد بها إلي : من أغلى الأمانات، أمانة لا تعوّض.

كانت قد ذهبت، تحت تسريحة أوراقها الذهبية، لتلتحق بأخواتها الرّمّيات. ولكن الأريج النباتي الذي أدخلته وتركته في الغرفة، ظل يتضوّع.

لما عادت للظهور، بعد مدة طويلة من الزمن، لم تكن ابنة الغاب الصغيرة بل ليلي بال التي كان عليّ أن أستقبلها. لا أثر للقبعة الذهبية، فقط ذلك الشعر الذي ينحدر كشلال أسمر على الظهر، على الوجه وعلى العينين. عينان كبيرتان جدا بالنسبة إليها.

رأيتها تتقدم بهيئتها الحازمة. ستقوم بمسائلتي من جديد، وربما محاولة إحراجي كما تحسن فعل ذلك ولا تتردد في فعله، إن وجدت الفرصة لذلك.

— ولكن يا أبي، لماذا لا ترقص عندما تريد أمي أن تراقصك ؟

أيّ شيطان، إن كنت قد انتظرت هذا السؤال !

— أنبهك يا بنيّتي أني وحدي معك، هنا، وأنه لا وجود

لموسيقى لأرقص عليها ولا أمك لأرقص معها. لنرقص إذن نحن الاثنين، حتى بدون موسيقى، هذا لا يهم. ألا تريدين، نحن الاثنان ؟

انتزعت نفسي من طاولة عملي ومددت لها ذراعيّ.

لوت زاوية من فمها مبدية شيئا من الاستهجان.

— ليس الأمر كذلك. إنك تعرف جيدا ما أريد أن أقول.

هكذا، وبجرس صوتها لا غير دفعت مقدماتي. كانت آلة الغسيل التي شغلتها أمها في الأسفل، ترسل أزيزها. أصغيت لها. أمّ أبعد ما يكون من أن تفكر أننا نتحدث عنها في الطابق الأول – وهي التي تحسن محادثة نفسها دون أن تكون بحاجة لغيرها. فهذا الصوت، وليس غيره، هو الدفعة الأولى من الغسيل. تم غسلها بسرعة. تكون حتما قد أخذت إلى الخارج، إلى الحديقة حيث بدأت تجفّ.

— أبي، أنا أكلّمك ! لماذا لا ترقص مع أمي عندما تريد أن ترقص معك ؟

إن ليلي بال، إن كنت لا تعرفها جيدا، لا تترك أبدا الشيء الهام خاصة إذا شغل بالها. لم يرضها أبدا جوابي الذي لم يكن سوى مهربا. لن تكتفي به، أنا أعرف ذلك وعليه فلن أكون لا متعجبا ولا غاضبا منها. والآن، لنرى ما بعد ذلك قليلا. أي شيطان، هل أستطيع أن أخلّص نفسي من اللعبة ؟

وتابعت أقوالها :

— هل من شيء في ديانتك يمنعك من ذلك أم ماذا ؟
كانت السخرية تملأ عبارتها دون أن يظهر ذلك.
حافظت على هدوئي.
— كلا، إن ديانتي تقول : "من يحب الرقص يحيى في ذات الله".
— هذا جيد، قالت موافقة. ولكن لماذا إذن...
— لأني لا أعرف الرقص، يا بنيتي. بكل بساطة.
— أنا لا أصدقك. كل الناس يعرفون الرقص.
كان حكمها الذي رمتني به على الوجه غير قابل للاستئناف. تضاف إلى ذلك العبارة المرتابة التي رمقتني بها. وماذا لو كان سؤال آخر ؟
هل كان هناك سؤال آخر وراء هذا السؤال ينتظر الفرصة لنصب طرف أذنه ؟ أنا أعرف ليلي بال. إنها تُعد مؤثراتها، وتستقدم الأشياء من بعيد.
لم أتوقف عن مراقبة يدها التي كانت تشرح وتتحدث في الوقت نفسه بالتزامن مع فمها، زيادة على الحركات التي لا تقل فصاحة والتي تصاحب الكلمات بتناغم تام. مازال السؤال الجوهري يبحث عن كلماته ولا يجدها. أنا أحس بذلك. أعني ليست الكلمات التي ينبغي استعمالها، ولكنها أقل جودة، وأقل مناسبة، وأقل صنعة لتمنح لهذا السؤال حظه، الذي يبحث عن مخرج. كل هذا يدور ويدور في رأس ليلي بال.

ولكن النظرة اللامعة تعمل ما أمكنها لتبتسم. تريد أن تكون متملقة. وأنا لا أستطيع أن أقاومها، فأمسك هذه اليد كالطائر، وأهزها في مصافحة عنيفة :

— أنت جيدة ؟

— أنا، نعم، أنت الذي لست على ما يرام.

تركت مع ذلك يدها في يدي، يد غضة، حلوة، تكاد تذوب.

ثم تنهدت وهي تسحبها قائلة :

— كلا، أنا لا أفهم.

— ولا أنا أيضا.

— أنت لست هنا من أجل الرقص، أليس كذلك ؟

— ليس كذاك.

— ماذا إذن ؟

دائما هذه الأسئلة المفخخة التي تعرف سرّها والتي تتفنن بواسطتها في حصارك إزاء الحائط، أو على الأقل تحاول ذلك، وعيناها تلمعان.

قلت :

— لم أتعلم الرقص، ثم إنه لا المكان ولا الوقت مناسب لذلك.

ومن الأسفل يصعد لحن مدندَن بنصف صوت كأنه غناء داخلي، من تلك الأغاني التي ترافق بعض الأفكار.

— إنه لمن الغباء، يا صغيري، أن تعتقد أن المكان هنا ليس مكانا للرقص.

— لم يسبق لي أن تعلمت أبدا. أخشى أن أظهر بمظهر مضحك.

— إنك تخرج حماقة وراء أخرى. قلت لك لكي نرقص، لسنا في حاجة لنعرف كيف ينبغي أن نفعل.

— إن حماقاتي لا تضرّ بأحد.

— بلى، إنها تضر بأمي.

فجأة مملكتني غصّة لمجرد التفكير فيما يمكن أن تضيف، التفكير في التهمة التي من الممكن أن تتفوه بها.

قلت :

— أمك ؟ إنها بصدد الغناء في الأسفل. أنصتي إليها.

— لأننا نبكي في داخلنا، لذلك كثيرا ما نغني.

— لنرى، ليلي بال.

بكل تسامح طمأنتني :

— لا تحمل همّا. إنها تغني في هذه الآونة لأنها سعيدة.

وبهيئتها الأكثر دهاءا، أكّدت :

— أنا أعرف ذلك.

كانت تنظر إليّ دائما في حدقتي العينين، مع هذه الابتسامة التي تجعل عينيها تتلألآن مثل النجوم، هذه

النجوم التي تلعب دور القط من أجل متعة فأرة. ثم تأتي الضربة القاضية النهائية :

— ينبغي عليك أن ترقص.

أصابت نقطة حسّاسة في مكان ما، في داخلي، وفي داخلها أيضا إن لم أخطئ، إنها لن تسامحني.

سألتني :

— هل يمكننا أن نُكره أحدا على أن يحب آخر ؟

ها هو السؤال الحقيقي، السؤال الذي يبحث عن مخرج.

— كلا، لا أعتقد ذلك يا بنيتي.

— هل يمكن أن نُكره أنفسنا على حب شخص ما ؟

— كلا أيضا.

عندها نطقت بكلمات جمّدتني :

— إن كنت قد مللت من حبّنا، يمكنك التغيير.

كان اهتزاز صوتها باهتا.

— إنك أنت، يا بنيتي من تقول حماقات الآن.

— لا تهمني معرفة ذلك.

رغم الاطمئنان، إلا أن الصوت ذاته قد اختل عند نهاية الجملة. ولكن ليلي بال لم تحوّل عينيها عني لتمنعهما، حسب اعتقادي، من أن تغمرهما الدموع.

ورغم ذلك، ولكونها قائمة أمامي، فإن دموعها تدفقت وسالت على وجنتيها الخوخيتين، في صمت.

توسلت إليها، والقلب منقبض :

— لماذا، ليلي بال ؟

ودون أن تنبس بشفة، أدارت لي ظهرها وخرجت من الغرفة.

أنظر إلى هذا الرجل، إنه ليس رجلا، أريد أن أقول إنه أي واحد من هؤلاء الذين نتقاطع معهم في الطريق – ولا شيئا آخر. ولا شيئا آخر لأني عندما أنظر إليه، يُخيّل إلي أني واقعة تحت تأثير نظري الشخصي. هل هذا هو الأب ؟ وحتى الصمت ليس صمتا بيننا. حتى لو لم يتحدث : فهذا لا يمنع أني أسمعه يتكلم داخل رأسي. وهو أيضا لا بد أنه يسمع داخل رأسه كيف أكلّمه. كلام بدون توقف.

وحتى عندما يذهب، فإنه لا يغيب. فأنا أبعثه بالتحدث إليه. إنه بعيد هناك أين يعود دائما ولكنه ليس تائها.

أما الآن فهو نائم، ولا صوت يصدر عن غرفتهما، هو وأمي. هذه الغرفة كانت غرفتي أنا أيضا. ولكنها لم تعد كذلك، فأنا الآن أنام في المطبخ في هذا السرير القديم الكبير نوعا ما بالنسبة لي ولكن ليس كثيرا بالنسبة لرجليّ اللتين طالتا ولا يبدو أنهما ستتوقفان عند هذا الحد. وعندما نطوي غطاءه في الصباح، يتحوّل إلى مقعد جميل.

وبما أني متمددة، فأنا أشاهد الباب التي تؤدي مباشرة إلى غرفتهما. إنها مظلمة تماما. وهناك باب أخرى عند قدم سريري، باب تفتح على قرص الدرج.

أما سريري السابق ذي القضبان، الذي يمكن القول أني ولدت فيه، فهو موجود في الناحية الأخرى من الباب المظلم، مركون في الممر : فضاء يشبه القبة تقريبا. ولكني منذ مجيئي إلى هنا لم يعد موجودا. يا إلهي، ماذا أصبحت ؟ لقد نسيت كل شيء عن الماضي.

أكيد أنه لا بد لي من هذا السرير الآخر على الأقل لرجليّ اللتين طالتا. إني أراهما من هنا دون أن أضطر للقيام من أجل ذلك، لكثرة استطالتهما. لا نسمع أي صوت يأتي من الناحية الأخرى. إنهما ينامان جيدا في غرفتهما التي غدت لهما وحدهما الآن. ولكني أنا أملك الغابة من هذه الناحية. يمكنني، وأنا مضطجعة، أن أداعبها بنظري، وأن أسمعها. أما هما فلا.

أفكر في هذه الغابة، حشد ثابت هنا طول الوقت، وفي الوقت ذاته كأنه غير موجود. إنه عالم آخر، كأنه لا يعرف غير نفسه، ولا شيء غير ذلك. لا يمكننا الدخول إليها إلا في حالة الرقص. وهذا ما أفعله كل مرة. فأنا أنتشي بمتعة الرقص بين الأشجار، وأنتشي بجمال تلك الوحدة.

إن العصافير لا تكف عن الزقزقة بين الأشجار المتشابكة، دون أن تنقل الضجيج الذي تقوم به في الحدائق. فهي

تطلق زقزقة هنا وزقزقة هناك، خلسة. هذا كل ما تفعله وتنتظر. هل من جواب ؟ أحيانا يأتي الجواب. وأحيانا لا يأتي. وتستأنف العملية. وحتى أسمع جيدا، أنبطح على بطني وأدع رأسي مستديرة نحو النافذة. وفي هذه الأثناء تسبح الغيوم فوق أشجار التّنوب والصنوبر وتداعب ريشها كما لو كانت تتعامل مع عصافير كبيرة. أجري بفكري بين الأشجار التي لا تزال مضمخة بالليل، رطبة. إنها تتنفس حولك فترى في كل مكان هذه الأنفاس وهذه الغيوم.

أعتقد أني أرى غيوما أخرى تتتابع بين الأشجار ذاتها، وأطفالا كذلك. ولكني لا أدري أيّ أطفال هم. وحتى أبيّن لهم أني لست آخر واحدة وُجدت في المكان، واصلت الجري من شجرة إلى الأخرى.

ويكون ذلك خاصة في زمن الليالي التي لا ليل فيها عندما تعيش الغابة حلما. مثل الأطفال، أنا حاضرة في هذا الحلم، أتقدم بخطى صغيرة على الطحلب المبلل بالندى، قاطعة نفَسي، لأن شفاهًا في مكان ما تقول أشياء جميلة. في تلك الليالي، عندما تمحي صور العالم ولا تسمح بالظهور إلا لصور غائبة ؛ غائبة لأنها تنهض في اللحظة التي يكون فيها الحاضر بلا مستقبل ولا ماض، ولا وجود إلا لهمس ماء وزبد يجف فوق الرمل.

مرّ كل شيء على ما يرام بينهما، أمي وأبي، هذه الليلة. لم أسمعهما يتناقشان دون أن يرفعا صوتيهما بل لحد ضياع

الصوت، كما يحدث لهما في بعض الليالي. الحديث إلى غاية أن أنام حاملة معي شظايا كلماتهما الجريحة في أذنيّ، ثم تعود إليّ فجأة فأسمع الكلمات ذاتها تكشط الظلام بمخالبها. أمّي كثيرة العتاب، وهولا يشتكي أبدا.

لا بد أن كلاهما في أحضان الآخر فلا يشكّلان غير واحد. وعليه فأنا سعيدة بالسلم هذه الليلة، وبهذا التسامح الذي منحاه لنفسيهما. بقدر ما منحاه لي أنا أيضا. لم أستيقظ باكية من أجلهما، وعليهما في الظلام.

ها أنا في مطبخي، في سريري الذي يجب الإمساك بغطائه مرفوعا إن أردنا أن لا ننام كما لو كنا في نعش، أنا فيه في وضعية حسنة، أمدّ كما يطيب لي رجليّ اللتين أصبحتا طويلتين جدا الآن وغدتا كأنهما تريدان الخروج من الباب وحتى من البيت. لم يبق لي، والرأس على الوسادة، إلا أن أغنّي من فرط السعادة.

ها أنا قد بادرت بالنهوض والاستعداد، وبمجرد أن سمعت أبي صاعدا من جديد من غرفة الحمام، أسارع لرؤيته. (تجد أمي الوسيلة لتكون مستعدة قبلي أنا بكثير.) وأثناء ارتدائه ملابسه أسأله :

— أبي، ماذا قلت أنهم يقولون، عندك هناك، عن هؤلاء الذين يحبون الرقص ؟

— عندي هناك، يقولون : من يحب الرقص يعش في ذات الله.

— إذن أنت لا تعيش في ذات الله.

كان قد أدخل ذراعا في كُمّ قميصه فتوقف، ونسي أن يدخل الذراع الأخرى.

— ولماذا يا بنيتي ؟ اشرحي لي ذلك، لعلّي أستطيع الفهم.

— أنت لا تحب الرقص.

— لا أعتقد أبدا أني قلت أني لا أحب الرقص. أعتقد أني قد قلت بالأحرى أني لا أعرف الرقص.

— أنت تعدّل الأشياء دائما كما يليق بك. وهذا الأمر مماثل.

— هذا مماثل ؟ أعدّل الأشياء دائما ؟

— أجل، كما تريد أن تكون. لأنه إذا أحببنا فإننا نعرف عمل ما نحب.

— ربما كنت محقة، يا ليلي بال، ولكن ذلك يتطلب شيئا من التفكير.

أدخل ذراعه الأخرى في كمّه الآخر.

— يحسن بك أن تفكر في ذلك سريعا. إن كنت محقّة ؟ بكل تأكيد. إذن أنت لا تعيش في ذات الله.

— ربما كنت محقّة أيضا، مرّة أخرى.

حملت له جواربه، أدخلهما في قدميه. أخذته من يده. قدته وقادني إلى المطبخ.

قلت :

— ولكن لا بأس.

كانت أمي تنتظرنا وفطور الصباح كذلك.

سأل :

— أنت متأكدة من أنه لا بأس ؟

وفي داخلي فكرت : بكل تأكيد. وقلت في نفسي : كل هذا لا شيء وحتى لو كان كثيرا فإنه لا أهمية له. لا أهمية تذكر لأي شيء.بمجرد أن أنظر إلى عيني أبي، هاتين الحجرتين الحيّتين والثمينتين اللتين أحس أني أكبر تحت نظرهما، وأزداد قامة وجمالا. إنهما هادئتان، وستظلان كذلك دائما. ومع ذلك فإن في هدوئهما شيء ما مفترس. ولكنهما تبتسمان لك. وتعتقد أنت أن لا شيء يمكن أن يحدث لك أفضل من استقبال هدية ابتسامتهما. وأن لا شيء أسوأ بالطبع من أن يتم رفضك من طرفهما. فكل شيء يمكن أن يختفي حينئذ، ويمكن للعالم أن يكفّ عن الوجود.

أجل ليلي بال، إنك تخشين أن يحدث شيء مماثل. وهما هادئتان كعهدهما، غضّتان مشرقتان، تظلان فوقك بنورهما. ويكون الأمر كما لو أن قلبا آخر كان يخفق في قلب الحياة. أنا لا أدري كيف أقول ذلك. فبقربك أنت وفي بعدك، مثله – فهو كل الوقت هنا وفي مكان آخر. ينبغي أن نعيش مع هذا الفرح وهذا الحزن، ولا ندري دائما كيف يكون ذلك.

— كيكي ! أنا أعرف أنك هنا. لماذا لا تُظهر نفسك ؟

ولكن لماذا سرعان ما ينتابني أنا هذا النوع من الخوف ؟ خوف لا يذكر، ولا يبدو حتى أنه كذلك. كلا، ينبغي أكثر من هذا بالنسبة لي، وسأبرهن على ذلك، يا كيكي.

وعليه فقد سمعت نفسي أعيد بصوت متزن :

— أظهر نفسك إذن. ممّ تخاف ؟

كما لو كنت أتكلم إلى هذه الرؤوس المنغلقة في أطرها. وهي تبدو كما لو كانت ترسل لنفسها بسرعة طرفة عين بمجرد ما تتوقف عن النظر إليها، وأحيانا كما لو كانت تدير حوارا في الخفاء، رؤوسا تفقد الاهتمام فجأة.

وكذلك الأمر للأشياء الخزفية الصغيرة فوق الصوان، والأمر ذاته بالنسبة لكل ما يصطف فوق الرفّ على رأس السرير الكبير : قوقعات كبيرة غريبة، مصباح بونيقي استقدمه أبي، حبة رمّان مجفّفة كالمومياء ولا أدري ماذا

أيضا، كتب مكدسة ونصف هلال من النحاس القديم... كما لو كنت قد توجهت إليها هي، هي التي ينبغي أن تثرثر مثل كثير من الثرثارين عندما لا نكون هنا لنسمعهم، ولكنها موجودة هنا – عجبا – وتتحفظ الآن.

لو كنت على الأقل أستطيع أن أمنع قلبي من أن يخفق مثل الغسيل في الريح. آه من كيكي هذا ! إنه يغدو هكذا كل يوم أكثر قبحا. كان يريد أن لا يكون كذلك، لدرجة أنه لم يعد قادرا على ذلك. ولا يفاجئني إن حتمّ عليّ ذاك أن أخشى، في هذه اللحظة بالذات، أن يلعب لي أسوأ الأدوار. ولأني أتفحص الغرفة ولا أجد فيها شيئا خاصا، فإنه يتصور أني لا أفكر في ذلك.

إني أحس أنه قريبا جدا. آه كم أشعر بذلك ! ولكني سأواصل الرسم، فقد خرج أبي وأخذت منه مكتبه.

ثم : صوت مفاجئ، لقد انهار رفّ من الكتب ! في السكون الكبير للبيت، كاد قلبي يفارق صدري. إنه هو، كيكي !

ومن الطابق الأرضي، تتساءل أمي :

— ما هذا ليلي بال، هل أنت من تحدثين كل هذا الضجيج ؟

— لا شيء يا أمي ! فقط، بعض الكتب سقطت من على رفّها. سأعيدها إلى مكانها.

أقول لها ما حدث : إنها لن تفهم أبدا. فقد انتهت بالنسبة إليها من زمان حكايات كيكي : حين كنت لا أزال غرة، كانت تجتهد لتتظاهر بتصديقها. واليوم لا يمكن أن نحدّثها عنها مهما كان الثمن، وإلا فستحكم عليّ بأني مجنونة وينبغي معالجتي.

ما كانت تتحمل كيكي أبدا، أو أن تتحدث عنه حتى عن طريق الصدفة. أنا أذكر أنها، دون أن تصرح بذلك، كان يصيبها منه فزع رهيب. وعليه فليس الآن وقت الرجوع إلى ذلك.

أما هو الذي سكن الشيطان جسده منذ مدّة، بلا ريب، فيبدو أنه وجد كل الطرق مقطوعة أمامه، وكل الأبواب مغلقة. هو الشقيّ مهما فعل. هو الذي ليس له سواي في الدنيا، ولا يعرف غيري. كل هذا لا يجعله أكثر أدبا بكل تأكيد، ولا يوقفه، وهو الذي انطلق كما هو، إلى إفساد كل ما أمكنه أن يفسده. إنه يرفض حتى المجيء إلي عندما أناديه. إنه يرفض، فإما أنه يتكبر وإما أنه لا يسمعني. ولكنه ليس له غيري. ربما يريد ببساطة أن يموت. أنا أكبُر وهو يريد ربّما أن يموت.

صعدت إلى حلقي كرة لا هي تُبتلع ولا هي تُبصق. وأنا أرتجف مثل ورقة أحست قرب العاصفة. ألا يُستحسن أن أموت معه ؟ فأنا أصبحت كبيرة جدا وهو لا شيء. يا إلهي، إني أحس كأني أمشي على عكازين طويلين لدرجة أني أصبت بالدوار منذ أيام.

كم من الوقت سيصمد على هذه الحال، وأنا معه ؟ لا يمكننا أن نعيش طول الوقت ونحن ندير ظهرنا للعالم.

سأموت أنا أيضا : الشيء الوحيد الذي بقي لي فعله. وسأبقى فترة جيدة قبل أن أبعث، وأستعيد مكانتي في نظر أمي وأبي.

وفي انتظار ذلك، نزلت للالتحاق بأمي.

— فيمَ تفكرين، ماموشكا ؟

تكلمت معها هكذا فقط، طرحت السؤال بهدوء، ولكنها قفزت. أجابت :

— لا أفكر في شيء.

وكأن بي فاجأتها، وهي تفعل ما لا ينبغي لأحد أن يفعله. ثم وبهدوء أكبر :

— لا أفكر في شيء، ليلي بال.

واصلت التفكير في لا شيء كما وجدتها. وواصلت أنا أسئلتي :

— هل يعرف أبي الرقص ؟

— نعم.

هي "نعم" شاردة تماما.

— هل يرقص جيدا ؟

تركت الحديقة التي تتأملها من خلال النافذة، أو الشيء الذي لا تراه إلا هي وحدها في الحديقة، أو شيئا فيما وراء ذلك، واستدارت نحوي.

— أجل، يرقص جيدا عندما يريد.

— هل حقا ما تقولين ؟

— إن هذا حق.

وعادت هي لتفكر في لاشيء، أما أنا فسقطت من طولي في الدهشة.

كلا، لا أستطيع أن أصدّق ذلك. في ذلك اليوم، قال أنه لم يتعلم الرقص أبدا، ولم يعرفه أبدا، لماذا ؟ وكان أيضا اليوم الذي دعته فيه أمّي للرقص. كانت قد مدّت إليه ذراعيها، أما هو فقد نهض فعلا وذهب فعلا نحوها، ووضع فعلا يديه في يديها. ولكن عندما كان ينبغي أن يتحرك، كان ذلك مدعاة للبكاء : كان لعصا مكنسة أن تكون أكثر حيويّة، وأكثر استقامة منه.

لا أجد أي تفسير لذلك. لا أجد غير شكوى تستعر وتصرخ في داخلي. لا أجد غير فراغ. إن فراغا يحط حولنا. نحن الاثنتان مهجورتان. وأبي، هذا الأب العجيب، الذي يتقن الرقص جيدا، بما أنها تؤكد ذلك : فحوله هو الآخر فراغ أو أنه يدّعي أي شيء ولا يبالي. أبي ! لا يمكنني أن أصدّق ذلك. لا أريد أن أصدّقه.

آباء وأمهات : عُمي يرون كل شيء، عدا ما ينبغي رؤيته.

كان ينبغي أن أخرج من البيت لأتنفّس، فقد بدأت أختنق.

دون أن أتأرجح، بقيت جالسة على الأرجوحة بين شجيرات صنوبرنا، ولكن الأرجوحة كانت تتحرك وحدها، قليلا.

انتظرت، وأنا جالسة، أتحرك من غير تحرك. لمحت كيكي. كان يذهب من شجرة إلى أخرى، يختبئ خلف الواحدة، ثم يختبئ خلف الأخرى، ويرصدني.

أنا من خشب. لقد فعلت ما تفعله تلك التي لا تبالي بأي حضور في الأماكن المحيطة. وهو يجري إلى أبعد، ثم يعود على عقبيه. إن ابن مقرض الذي يجوس إلى غاية وضع قدميه في الفخ لا يفعل غير ذلك.

بينما أنا لا أحرك ساكنا، من جهتي، وأظل مسمّرة في مكاني، يقوم هو بمناورات اقتراب وينزلق تقريبا فوق ظهري.

وأنا على أرجوحتي، في جيئة وذهاب خفيفين، على كرسي التوازن، لا أمسك حتى بالحبل يمينا أو شمالا. ولكن سيرى من سيفاجئ الآخر، وأني لست أكثر غباء منه. تركته فقط يتقدم أكثر قليلا، وأنا جالسة كما كنت، في جيئة وذهاب على كرسي التوازن.

وفجأة أستدير وأصرخ :

— لقد رأيتك، يا كيكي ! لقد أمسكتك جيدا !

لا أحد خلف أي شجرة، كما لو أني لم أخاطب غير هذه الأشجار، غير أذرعها المرفوعة للسماء. كما لو كانت هذه السماء موجودة في الأسفل وأنا في الأعلى، محفوفة بالأشجار، كانت هي الوحيدة التي سمعتني في الوقت الذي كانت فيه تهمس بكل أوراقها ورؤوسها المتقاربة كالأشرعة، وبعضها يخطب بإطناب ويتناقش. لست أدري بماذا تذكرني.

رغم كبرها ورغم سعتها، تبدو الحديقة أكثر كبرا وأكثر سعة. وبعد ذلك، وقع سحبي فوقعت على ظهري. تمددت جيّدا على أشواك الصنوبر التي انغرز بعضها في جسدي.

لم أحرك عضوا، تحركت عيناي فقط، في كل الاتجاهات، وبحثتْ. أريد أن أرى وأخاف من ذلك. أخاف أن يكون الشيء الذي أراه مرعبا. تكفي نظرة واحدة لنذهب لملاقاة كل فرح الدنيا أو لضياعنا. ليس أكثر من نظرة، وتغدو الحياة ممكنة أو مستحيلة العيش. في هذه اللحظة، ندّت ضحكة صغيرة ماكرة بين الأشجار.

من ضحك هذه الضحكة ؟ عدت للنهوض واقفة. أدرت عينيّ. الحديقة فارغة تماما : على كبرها. آه، يا كيكي ! لن تكون أبدا لا لطيفا ولا عاقلا يا كيكي.

نظفت بيديّ الإثنتين فستاني من إبر الصنوبر، لم يرن أحد وأنا أسقط. اتجهت نحو بيتي دون أن أنظر من حولي. لم أعد متمسكة بالبقاء في هذه الحديقة.

II

غريبة الثلج و الرمال

هاهي أمي تجتهد في إعادة ربط عقيصتها، وهي رافعة ذراعيها وممسكة بدبابيس شعرها بين أسنانها مثل الأصباح الأخرى ومثل كل صباح. ولكنها، ومنذ لحظة، لم تعد تتحرك. غدت تمثالا محافظا على وضعه، ومتأملا ذاته في المرآة الطويلة المذهّبة. تمثالا بعقيصتها النصف ملفوفة بين يديها. هل تشاهد نفسها حقا ؟ أشك في ذلك. إذن، ماذا تشاهد ؟ شيئا آخر غير ذاتها ؟ إنها تنظر إلى المرآة وتبدو كما لو كانت تشاهد شيئا آخر، لا أدري ما هو. عالما آخر. إنها تقف هنا في الأمام كما لو كانت تحاول الدخول هناك. إنها لا تشك في أني أراقبها وهي على تلك الحال، ليست أمام مرآة، بل أمام باب تريد اجتيازه. لم تكن ترى أي شيء، كانت تسمع نداء ذلك الباب فقط. إنها ليست مرآة. إنها لا ترى نفسها فيها.

أنا أحزر الصعوبة التي تعانيها دون أن أتصور ما يمكن أن تكون تلك الصعوبة. أفهم فقط أنها تعاني وأني أشفق

لحالها. أن تكون أمام مرآة ولا ترى نفسك فيها، لا بد أن ذلك شيء مرعب. وأسوأ منه أن ترى فيها شيئا آخر.

أمّاه، عودي لنفسك مادام الوقت متاحا لذلك. آه يا أمي ! اسمعيني ولا تسمعي الشيء المجهول الذي استولى على اهتمامك، والذي يراقبك من عمق هذه المرآة.

تعلّقت بهذه الفكرة : أن أنتزعها من تأملها – من حلمها – وأن تنتهي من عقد عقيصتها. أن تحوّل عينيها، أن تحوّلها بالأحرى نحوي. ليست الأشباح ما ينقصنا. فهناك الكثير لدرجة أن كل شعوب العالم مجتمعة تبدو إلى جانبها، كأنها مجموعة صغيرة من التلاميذ في نزهة.

ابتعدي يا أمي عن هذه المياه الآسنة التي تغرقين فيها، وقد تحولت إلى تمثال، وأنت بدون شك يائسة من اكتشاف صورتك.

— ليلي بال، ألا تكفين عن البقاء هنا للنظر إليّ كما تفعلين ؟ لو رأيت نفسك وعيناك خارجتان من رأسك. ستسقطان من محجريهما دون أن تنتبهي إلى ذلك. ابحثي لنفسك عن شيء آخر أكثر أهمية تشتغلين به. اذهبي.

يا رب السماء، إن هذا الصوت الذي ناداني لتوّه ينحدر من المرآة، من المجهول، ومن خوفي !

— نعم يا أمي.

وبعد، ها هي كل الأشباح التي توجد على وجه الأرض

وفي مكان ما، ها هي تقتحمك بقوة وبأعداد كبيرة لدرجة احتلال الهواء وعدم ترك أي متنفس لك منه.

— نعم يا أمي.

أمام دعوتي بهذه الطريقة للمغادرة، تراجعت. مهما كان الأمر، فأنا لا أريد أن أشهد ما يمكن أن يحدث في هذه الغرفة. إنها لم تعد غرفة بل ملتقى لكل هؤلاء... من الأفضل أن لا أقول من. يصل كثير منهم زيادة عن هؤلاء الذين سبق لهم أن وصلوا. ولكن لنسكت. فأنا ببساطة لم أتعرف على أمي في الهيئة التي كانت عليها عندما نصحتني أن أذهب للبحث عن شيء آخر أفعله، وهي نصف ملتفة نحوي،. لم أكن لأتحمل رؤيتها طويلا على تلك الحال. لقد كادت تتملكني رغبة في الصراخ. ولكني لم اصرخ، لم أكن لأقدر على ذلك، لحسن الحظ لم يعد لي صوت.

أمي. طول الوقت : أمي، أمي، أمي. من تنادي هكذا، أنا ؟ إنها جد متأكدة. أما أنا فلا. ربما كنت أمها ولكني غير متأكدة من ذلك، على الأقل بالدرجة التي تبدو أنها تراني عليها. هي، تعرف ذلك. أما أنا فلا أعرف كثيرا. ربما سأعرف ذلك ذات يوم أنا أيضا، ولكن متى : تلك حكاية أخرى. حكاية يمكن أن تحكى، كما يمكنني أنا أيضا أن أحكيها لنفسي. وبقليل من الحظ، أرجو أن تكون الحكاية ذاتها. سنرى. من أنا، حتى أمام هذه المرآة ؟ هل أنا أم ؟ إن ذلك يضحكني. شخص آخر ؟ لا شيء أبدا أو ما شابه

ذلك. أنا ما كان مني. أنا ما فعلوا بي. هذا الشخص الذي جعله مني شخص ما. بمجرد نظرة، بمجرد ثقب قفل تمرّ عبره نظرة بدل أن يمرّ مفتاح. هذه النظرة التي بقيت مني، أو ثقب المغلاق هذا. أما الباقي فلم يعد ينتمي إليّ، لم يعد أنا. فقبل أن يغادرني، كنت قد غادرت نفسي. لم يعد بالإمكان إذن أن يغادرني، وأن يواصل مغادرتي، ويواصل مغادرتي، ويواصل مغادرتي. أنا أعرف ذلك دون أن أعرف. أعرف كل شيء. فقد تمت مغادرتي منذ مدة طويلة، ومن قبل، ليتركني كما فعل بي: شخص لم يعد أنا. لم يعد هو. تلك التي لم أعد أراها في هذه المرآة والتي تعاتب الآن، والتي لن تستطيع مقاومة هذه الضربة. لا تستطيع الصبر على هذا الاختبار الأخير. التي ستتصدع ثم تطير شظايا من أثر الصدمة. وتغدو لا شيء.

ولن يبقى سوى صنف النظرة التي تأخذ في تفحصك من خلال كل شظية تُلتقط، والتحديق فيك عبر كل قطعة من المرآة أو... من خلال قفل باب، وستكون تلك أنا. وفيما وراء ذلك، ومن حول: لا شيء. شيء ما غير موجود، منظر حدود لا ريح فيه ولا مطر، ولا شمس، ولكنك لا تستطيع أن تنزع عنه عينيك، كما لم أتمكن من انتزاع نفسي من هذا الرجل. وكان لا بد في النهاية من حدوث مانع بيننا مثل بوابة قصر منيع. لم يعد لنا غير إمكانية رؤية بعضنا بعضا الآن من جانب أو آخر عبر

هذه الشبكة دون أن يتوفر لنا أبسط حظ للالتقاء. لقد تم وضع ختم على شفتيّ، ولا أدري ماذا وُضع على شفتيه هو. ولكن ليس على النظر أو على الصمت، ومائه، ماء، أمواج تتدافع دون أن تعود أبدا إلى نقطة انطلاقها، وهي تجري إلى غاية الأفق، ثم إلى حيث لا أفق. أمواج تقفز فوق بعضها البعض، وتتحطم على بعضها بعض، وتتهاوى مرهقة على بعضها بعض، ودائما هي ذاتها التي تهمس : أنا. إلى الأبد : أنا، أنا، أنا، تحت عين العالم الذي يراقبها. عينا كبيرة تبكي أحيانا فتُغرق كل وجود بالدموع.

وآخر مَورد لي : أن أمشي وأمشي، مثل هذه الأمواج. غير أني أمشي وذراعاي متقاطعتان على صدري. أمشي لأهدّئ في نفسي ما لا يستطيع ولا يريد أن يهدأ. وأهدّئ الذي يبحث عن نفسه. فيم تفكر الأمواج حين تسير، إلى أين تذهب، وعمّ تبحث ؟ هل تستطيع أصلا أن تبوح بذلك ؟ أما أنا فأغلق الدفتين وأمضي، أهيم مصطدمة بالأثاث، وبالأبواب، وبالجدران. ولن أبلغ عندئذ الحديقة المهجورة التي لا تموت حول بيت يحتضر، إنها منسية من طرف البيت، وحتى من طرف الرياح. فلا وجود لغير جمود التيه وسواده الذي يسكنانها ويسكناني. وأنا داخلة، أخذت أعدّ عتبات السلّم من الطابق الأرضي إلى الطابق العلوي، ثم من الطابق العلوي إلى الطابق الأرضي. عتبة، عتبتان، ثلاث عتبات. هناك دائما أربع عشرة، لا

شيء آخر يُرجى. ربما وجدت، ولو لمرة واحدة، عتبة زائدة، أو ناقصة...

وفجأة رأيت نفسي مرّة ثانية في المرآة، ها أنا ذي، أسير رفقة زميلات من الجامعة. ولكن جاء معهن كذلك رفيقات من المدرسة الابتدائية. كيف أمكن أن نتواجد كلّنا مع بعض ؟ هذا أمر غريب. كانت كل واحدة ترتدي الأبيض، جين أبيض، صدار أبيض، في حين كنت أرتدي معطفا قطنيا قديما ومغبرًّا وحذاءا بعقبين عاليين. وهذا تحت شمس ساطعة.

كنا قد شرعنا في صعود شارع مبلّط بحجارة ملساء كبيرة وغير متساوية تزيّنها الحدب والحفر. لم تكن الأخريات تشتكين من ذلك، أما أنا فكنت أعاني تحت معطفي وبحذائي أكبر المصاعب في متابعتهن أو حتى في المحافظة على توازني، دون الحديث عن سيول العرق التي كانت تغمرني.

وفي الأخير وصلنا على مرأى من هذه المدن التي تشبه الألعاب، والتي كثيرا ما نصادفها في الناحية. أشجار قيقب قديمة تمد أغصانها من فوق شاليهات مطلية بالأحمر والأصفر. أحسست أن تسريحة شعري قد انفكت، ينبغي عليّ أن أتوقف لإعادة ترتيب شعري.

في تلك اللحظة، تجاوزتنا فتاة شابة تنتعل حذاءا خفيفا

وترتدي فستانا بأزهار زرقاء مثل فستاني. كانت الشمس تتلاعب بخصلات شعرها الأحمر قليلا، مثل خصلات شعري أيضا ولكنها مظفورة جيدا. كانت تمشي بخفة ومرونة. كما لو لم تكن بالنسبة إليها أي عقبة تصعدها، ولا هذه الحجارة الكبيرة الملساء. كانت هيئتها، وقد لمحتها أثناء المرور : جادّة، طبيعية، مسالمة، ولكن بشيء ما قد عزمت عليه.

كانت تتقدم بانتظام كبير كما لو كانت متواجدة في موكب على الرغم من أنها لم تكن تنظر أمامها، بل كانت تمشي خافضة العينين. ثم لم أعد أميّز غير ظهرها، ومرفقيها، وقفاها الذي يشع شبابا. كانت تخترق الهواء الصيفي بهدوء على طريقة القديسات المحمولات على كواهل المريدين. وفجأة فهمت : إنها أنا في شبابي. أنا عندما كنت أذهب للقائك، أنت الذي كنت أحبّه كثيرا. ستكون هي أول من يصل إلى الموعد أما أنا فلن أصله أبدا.

أحسست في البداية أني منهكة ولكن، ومباشرة بعد ذلك، هادئة هدوءا غريبا. كما لو كنت قد اخترت أن أرسل إليك هذه الأنا الأخرى مكاني. كما لو كانت رسولتي. ها أنا أرى بأم عينيّ صورتي وهي تسير. كلاّ، إنها أكثر من صورة، أكثر من وهم، إنها أنا. أنا، وهناك كثير من الأشياء مجتمعة في هذا الشبح، وكثير من الأفكار، وكثير من الآمال، وكثير من الحب الذي لا أستطيع معه

تحويل نظري. كانت تصعد هكذا بهدوء نحو السماء حيث كانت الطريق تبدو كأنها تريد أن تضيع وفجأة أخذت أجراس تدق. كان رنينها الذي يأتي من كل مكان مذهلا. نظرت إلى قدميّ : فإذا هما ينتعلان حذاءا خفيفا وجوارب بيض. وبالطريقة ذاتها، لمحت عُريي الأبيض تحت المعطف المظلم.

أما الآن، فلم يعد هناك غير الغيوم.

أمي، أمي، أنت حاضرة في كل مكان عدا هنا، في هذا المطبخ الذي لا يعتبر مطبخا فقط بالنسبة لنا : فأنا أنام وأشتغل فيه أيضا. أنت طول الوقت في أماكن أخرى غير التي أراك فيها، حيث تعيشين، حيث أعيش عندما أرسم وأُلوّن. في أي مكان بكل أسف. كيف يمكنني أن أرسمك إذن ؟ هناك حيث أنت في حين أنك هنا، هل هناك فتاة صغيرة ليست أنا وتريد أن ترسم صورتك ؟ هذا غير مستبعد وأنا أراك تتجولين هكذا. لا ندري أي شيء هام يبدو أنه قد حلّ حيث توجدين دون أن تتواجدي. مثلما أراك جالسة على المقعد الكبير فيما بعد، على الطرف الآخر من الطاولة، وذراعاك موضوعتان على القماش المشمع، أحب هاتان الذراعان الجميلتان، واليدان أيضا اللتان أجنّ بهما، يدان تشدان وتمسكان بعضهما بعضا بإصرار أخرس. أخرس مع رغبة، في انتظار شيء ما سيحدث حتما، سيقع أو سيحصل، مع الشك الذي يساورك حول

حدوث ذلك، وحول وقوعه أو حصوله أبدا لسبب بسيط وهو أن ذلك ربما يكون قد وقع أو قد حصل. وأن ما ينبغي أن يحدث ربما يكون قد حدث، وأنه لم يبق الآن حظ يذكر لأي شيء. مهما احتفظت بالأمل، وبقيت في الانتظار، تضغطين يديك لحد ابيضاض المفاصل. عندها أتوقف عن الرسم وعن التلوين لأجلس، وألتصق بك على المقعد ذاته. سأحيط خصرك بذراعي، وأضع رأسي على كتفك. ومباشرة ينفذ فيّ دفء جسمك، وتسري في موجة من الحنان.

تغمرينني بكل الحياة التي تحملينها بين جنبيك والتي سبق أن منحتني إياها. إنها متعة لا أعرفها إلا معك، إنها تخترقني لتذهب إلى أبعد من الهم، ومن الصبر اللذين يعذّبانك. إن جسدك سعادة. وفي مكان ما هناك شيء ما هام يتقرّر بدون شك، ولكنّي أنا، جزء منك، من استيائك، من بؤسك، أنا هنا، أنت لست وحدك ولا مجبرة على أن تقولي لي ما الذي يجعلك على هذه الحال. وإني أدعو أن يمر كل وقتنا هكذا، وأن لا يجعل من كلتينا سوى واحدة دائما، كما أجلس بجانبك.

ولكن ربما انتهيت إلى أن تقولي لي ما الذي لا يروقك. ما الهّم الذي تعانينه والذي قد يأتي يوم لن يكون بإمكانك تحمّله أو الاحتفاظ به لنفسك. همّ لا يمكن الاقتراب منه الآن، ولكنّه في كل دقيقة يزيدنا قربا، ويزيدنا توحّدا، أنا وأنت.

كثيرا ما يحدث لك ذلك، وهي حالة تعرفينها. فأنت غالبا ما تكونين مرهقة بصراع لا ندري ضد من تخوضينه، متعبة لدرجة اضطرارك في بعض الأيام للبقاء في الفراش، وتحوّل شعرك الأشقر – أما شعري أنا فهو أسود مثل شعر أبي – إلى اللّون الرمادي وتدلّيه على شكل خصلات قبيحة.

ولكن اللّحظة التي ستتخلصين فيها من هذه الغصّة، أراها تقترب : ها أنت قد بدأت تهزّين رأسك، إنك تضحكين وحدك على نفسك وأنا أحس الضحكة ذاتها تتصاعد في جسدي. أنا أدرك، يا أمي، أنها ليست ضحكة جذلى، وسأعرف لماذا، عندما تقرّرين شرح ذلك لي. لن أطرح عليك أي سؤال. لن أسألك في أيّ نقاش دخلت. ولا مع من ؟ لا.

هل تدركين يا أمي ؟ أنه بدل أن ينهار جسمك على هذا المقعد، قبالة هذه الطاولة، فهو سيعتدل. سيقوم بذلك في نوع من التحدّي. وستجدين كبرياءك. ستثبّتين قناعتك أمام شخص ما، أمام أبي بكل تأكيد. وسيقع الحدث في ذاتك، أي في مكان آخر. وستنفصل يداك المتماسكتان معا وترتفعان. ولكنهما سرعان ما تسقطان على الطاولة بقماشها المشمع. هل هذا لأنك تتساءلين ما جدوى النقاش مع أشباح ؟ وهل في ذلك مبالغة ؟

ها هي أمي الآن تلف كتفيّ بذراعها وتضمني إليها بقوة، وتستقبلني في دفئها، في أنفاسها – في حياة أكبر، في كل

الحياة التي تحترق بها. وبعد ذلك تلفّني، وهي تحني رأسها جهتي، بنظرتها الخضراء الرائعة التي تواصل اللمعان، وهي غارقة في ضوئها الخاص، وتواصل التحديق فيّ من عمق ذلك النور.

قالت وأنا لا أدري من يتكلم، هل هما العينان أم هو الصوت :

— هل يمكن أن أعهد إليك بسرّ، ليلي بال... هل أستطيع ؟

أشرت برأسي أن نعم.

— أنا محتارة، محتارة بشكل فظيع، واصلت. محتارة بشكل لا يمكن تصوره.

— ولكن لماذا يا أمي !

— لماذا، لماذا ؟ بعد بضعة أيام سيحل علينا عيد القديس يوحنا.

— سيحل عيد القديس يوحنا وأنت مهمومة بسبب ذلك ؟ طالما انتظرنا هذه الليلة والسعادة التي تحملها لك ؟ أنا لا أفهمك.

— بالضبط، ليلي بال. عندما يتهيأ كل شيء، عندما تكون كل الأنوار مهيأة للاشتعال في كل مكان.

— حسنا، ستكون رائعة هذه الليلة بشموسها التي لن تغرب أكثر من شمس السماء ! ألا تعتقدين ذلك ؟

وتهمس أمي بصوت منخفض تماما لا أكاد أميّز كلماته :

— لقد تعارفنا ذات ليلة من ليالي عيد القديس يوحنا، أنا وأبوك.

— وفي هذه اللحظة بالذات، لا يكون بقربنا. هل هذا ما تريدين قوله ؟

— آه، لو كان ذاك هو السؤال ! لا ليس ذاك. سيكون عيدًا فظيعًا هذه السنة.

— أمي، كيف يمكنك أن تقولي مثل هذا الشيء ؟ إن الجو جميل جدا. أم أن هذا بسببه هو الذي ذهب كما فعل... إن أبي رحّالة.

— رحّالة ؟

— أجل، لقد قال ذلك، وأنا لا أزيد عن تكرار كلماته، إن وطنه مخيّم في الصحراء.

— ولكنه لم يذهب من أجل أن يعود إلى الصحراء، ليلي بال.

— لقد قال : إن في وطنه هناك أناس بدون بيوت، وبدون أي شيء، ولا يكفّون عن الذهاب إلى أبعد مكان ممكن مع أنعامهم ثم يعودون أدراجهم ليجدوا أمامهم الرمل الذي خلّفوه وراءهم ولا شيء غير ذلك.

— أعرف، أعرف، ولكني لم أقصد ذلك بكلامي.

— ماذا قصدت إذن ؟

— كنت أريد القول أن الجو جميل جدا ! وأن ذلك لن يستمر إلى غاية عيد القديس يوحنا.

— بلى، سيستمر.

— أبدا ! لا أمل في ذلك.

— هل أنت متأكدة إلى هذا الحد ؟

— أنا متأكدة من ذلك ! إنها حرارة غير طبيعية.

فكرت بمفردي على حدة : لا، ليست حرارة طبيعية. ولكن هل هذا كل ما في الأمر، مسألة حرارة أو عدم وجود حرارة ؟ إنها لا تريد هذا العيد وتفضل أن تراه غارقا في الأمطار، أو أسوأ من ذلك.

ومع ذلك قلت :

— أنا لا أشعر بأي شيء غير طبيعي في هذا الجو الجميل. أنا أرى أن عيد القديس يوحنا سيكون بالأحرى جيّدا.

— بالمقابل ؟ قاطعتني بضغطة من يدها على كتفي كما لو كانت تريد أن تجعلني أكثر قربا منها وربما شريكة لها.

— بالمقابل، أنا لا أجد الأمر طبيعيا أن لا يكون أبي هنا. في هذه اللحظة التي كنتما قد التقيتما فيها.

خففت أمي من ضمتها، خفضت رأسها وأرسلت عينيها في الفراغ بعبارة لم أعهدها منها أبدا.

— لا تتحدثي عن ذلك، ليلي بال ! خاصة في هذه اللّحظة !

لم تصدر عنها تلك الصرخة التي كنت أعتقد أنها سترفع بها عقيرتها. لماذا ؟ هل أطلقتها في داخلها ؟

— إذن ليس هذا حقّا ؟ ألا يشجيك كثيرا أن تفكري في أن هذا هو اليوم الذي تعرفت فيه على من سيكون فيما بعد أبي ؟

أخذتني هذه المرة من الكتفين وهزّتني بلطف.

— آه، يا ليلي بال : أجل، أجل.

اعترفت أخيرا. ولأنها كانت مختنقة بالعبرات فقد لفظت كل كلمة في نفَس.

— هل هذا يشجيك كما في اليوم الأول ؟

— كما في اليوم الأول.

— وإن تطلب الأمر الإعادة، فذلك يشجيك أيضا. أم أنه يمكن إعادة ذلك.

— هذا هو. هذا هو تماما. ها أنت تعرفين أشياء كثيرة يا ليلي بال !

— ولكنه ليس هنا.

— ولكنه كما لو كان. ففي كل الوقت، كان يمكن أن يعاد كل شيء.

— لأنه كان من هناك، من ذلك البلد الآخر، وأنت من هذا البلد ؟

— كلاّ، ليلي بال، كلاّ. لأنه كان هو. لأنه كان ذلك الذي لا يزال هو.

لم تعد أمي سوى امرأة مبهورة، لا سلاح لها، تفتح قلبها بما فيه من هموم لامرأة أخرى. لم تعد سوى تلك التي تستفيض في نشر أسرارها البائسة وأفكارها التي لا يمكن البوح بها والتي تهزّ قلبها. لم أكن بحاجة إلى سماع المزيد كي أفهمها، وكي أفهم كل شيء.

ولنقل في حقها : إنها تركت نفسها تنساق وراء هذه التجاوزات لأوّل مرّة.

وهل ينزعج أبي هناك حيث هو، عندما يعلم أن عيد القديس يوحنا سيكون على وشك الوصول؟ فكرة تقلقني أنا.

استأنفت أمي ولكن لنفسها، ولنقل أنها لم تعد تُسر لي بأي شيء، وأنها تبدو كما لو أنها نسيت :

— لو كان من الممكن أن يكون الجو رهيبا كما يحدث في بعض الأحيان. فإنه سيكون الجو الذي يناسبني، والذي يسعدني. لن أكون بحاجة إلى إذراف دموعي، ستفعل السماء ذلك من أجلي.

إنها لا تفكر إلاّ في همّها. وجّهت نظري نحو النوافذ ومن ورائها أشجار التنّوب. وفي الخارج، شمس رهيبة تمكنت من الغابة كما لو كانت تنوي إحراقها. أما السماء فهي مزرورقة أكثر، ورهيبة أكثر من أي وقت مضى.

لو كان أبي معنا لما تأمل هذه السماء بل لكان تأمل أمي. ولكان فعل ذلك بنوع من الإعجاب يوحي به إليك شخص قادمٌ من عالم آخر، شخص يحمل لهذا العالم سعادة لا يعرفها. أما هي فتكون قد نهضت، وتكون قد رقصت له.

ليلي بال ! ليلي بال ! أين أنت ؟ مرة أخرى في هذه الأشجار ؟

إنها أمي تبحث عني. لقد أطلقت نداءها من جديد. مرة أخرى في هذه الأشجار ؟ إنها تشك كثيرا في ذلك. لن تجدني. هل أجيبها، أنا أرغب في ذلك. فتحت فمي : وفجأة أوقفني شيء ما. لم أستطع. ومع ذلك فأنا أحسّ الكلمات المستحيلة التي تصعد إلى شفتيّ ولكنها لا تتجاوزهما. لن تعرف أمي، ولا أي أحد أبدا. هذه الأشياء ينبغي أن لا تُعرف. عندما أتسلق الأشجار، أظل أنتظر. أغمض عينيّ وأنتظر. أغمض عينيّ وأستمع. هل يأتي ما ينبغي أن يأتي ؟ شخص ما ؟ اصطفقت بوابة الحديقة كما لو أن شخصا دخل وأعاد غلقها وراءه. قد يكون شخصا ما. ولكن أين هو ؟ لقد جاء. ثم رجع. في الوقت ذاته. وخلال لحظة لم نعد نسمع شيئا غير حشرات تطير. أوراق تصدر صوتها الذي يشبه خرير المياه. لم أعد أسمع شيئا.

شجرتي هي أنا، لقد نموْت بجذوري إلى غاية هذا المستوى في الأعلى.

وسأواصل الارتفاع أكثر فأكثر. بعيدة جدا ووحيدة جدا. سأظل الشجرة الوحيدة التي تُرى وسط بلد كامل، وفي وحدة كاملة. تُرى من أبعد مكان ننظر منه. وبعد ذلك فليتوقف كل شيء بعدها. كل شيء. وأن لا يتغيّر أي شيء. سأكون وسأظل هذه الشجرة حتى النهاية، ربما أكون ميتة وأكون، مع ذلك، الشجرة ذاتها منتصبة دائما في مكاني، من أبعد مكان يمكن أن نُرى منه. لن نجد أي شيء آخر. ولا أجمل من ذلك. يقول أبي أن في أكثر من نصف بلده، نستطيع أن نمشي أيّاما، دون أن نلتقي بشجرة. لذا سأكون الشجرة التي يستطيع أن يراها من أبعد مكان يكون قد انطلق منه.

— ليلي بال، عندما تملّين من الاختفاء هناك في الأعلى، سنذهب نحن الاثنتين إلى المدينة.

لقد تركني أعود إلى هنا، أنا شجرته وابنته الصغيرة. أمّا الأسرار فقد بقيت هنالك تحترق في الصخر. وستظل هناك طالما لم يتوقف العالم عن أن يكون ممسحة أقدامنا من أجل استعادة جماله وكبريائه.

الأشجار تعج بالعصافير المذهولة بصياحها وبكل باقات الأسئلة. تسأل ماذا ؟ وإلى متى ؟ رعب يبدو أنه لن يهدأ.

وحتى الديوك البرّية ذاتها لو توصلت إلى القفز من الأرض إلى غصن فهي لن تتأخر. إنها تزقزق كلها كأنها في جوق، كما لو كانت مجموعة أطفال اكتشفوا ألعاب ليلة عيد رأس السنة. يكاد يصيبنا الصّمم. ولكنها لا تقول أيّ أسرار. هل تعتقد أني ملكتُها. يكفي شيء قليل لتكون ملكة شخص ما. إني أتقاسم فرحها لأني أشكل جزءا من معاناتها. إنها تفكر بكل تأكيد أني أفضل ما هو موجود بالنسبة إليها.

— هلا قرّرت في الأخير أن تنزلي عن هذه الشجرة، ليلي بال !

إنها شخصية كبيرة، لم تكن أبدا غير ذلك بحكايتها عن المدينة حيث ينبغي أن تذهب، وبكل ما تقول كما لو كنا دائما بحاجة لقول شيء ما. الكبار، كانوا كذلك و سيظلون، و لم يكونوا من قبل غير ذلك. لا حظّ لها. ولا للمدينة كذلك، إنها تسبّب لي الغثيان. هل تريد أن تذهب هناك من أجل مغادرة النافذة التي تقف عندها، ووجهها الملتصق بالزجاج، تنظر إلى الأشباح وهي تمر في الحديقة ؟ لقد استمرّ ذلك لساعات حتى أخذ الظل يسقط من عينيها. وقد تغيّرت هي ذاتها، بوجهها السجين في الزجاج، إلى شبح ليس أقل حقيقة من تلك الأشباح التي تراها.

لتذهبْ إلى مدينتها. وماذا لو وصل أبي فجأة ولم يجدنا، لا هي ولا أنا في البيت ؟ حديقة فارغة، بيت فارغ، أشياء

قد تعرفه وقد لا تعرفه. من سيستقبله ؟ أعتقد أني سأموت بسبب ذلك، لأنه حتى يأتي، سيأتي، أنا متأكدة من ذلك، سأظل حيث أنا.

أما الحديقة فهي تستمع وأصبعٌ على فمها. سيكون هناك، ولن يكون هناك نداءات أخرى. الهواء حارّ. وشيء ما غائب يطوف، يجوس بكل حضوره. هل هي حالة سكون للنهار ؟ كم أخشى أن لا تكون هناك إجابة عن هذا السؤال. لو رغب في الحديث لكان وجد الكلمات وتحدّث وحده.

ولكن العالم، وكم هو مؤسف أن نقول ذلك، يغيّر وجهه دون سابق إنذار. فما هو أمامك يتحوّل فجأة خلفك، وما هو مفتوح، فجأة ينغلق في وجهك، ويتحوّل الأبيض إلى أسود، والقريب إلى بعيد، وأنا وسط كل ذلك. وفوق ذلك، فأنا متأكدة أني كنت مراقبة أثناء هذا الوقت. دابّة متربصة في الحديقة لها أعين في كل مكان. هناك دائما كثير من هذه الدواب المستعدة لحبك. وهي تتعرف عليك وإن لم تتعرف أنت عليها وتتركها تفعل ما تشاء. ستقول أنت أنها تخنقك من فرط الحب. تقول ذلك أنت ثم تبحث، وأنت مغمض العينين، عن ملجإ في عمق ذاتك. ماذا لو كانت إحداها ؟ إنها حكايات لا تعرف نهايتها. وعندما نرى أنفسنا كذلك في المرآة، فإننا نتساءل أحيانا من ذا الذي ينظر إلينا هناك. كذلك الأمر، فالمرآة يمكن أن

تحبك وتُظهر لك هذه الدابّة. والدابّة، أحيانا، تُظهر وجه كل العالم. إنها حكايات لا تعرف نهاية، أبدا.

ألم تتعبي من حملي، يا شجرتي. لم أعد أسمع نداء أمي. إذن لا داعي للنزول. لازلت مكسوة بأشواك على الجلد وتحت الجلد مع هذه الحكاية التي لا نهاية لها. وهذا يدعونا للتساؤل إن كان الشخص قنفذا تنمو أشواكه في الداخل. هي الحكاية نفسها دائما. آه أيتها الدابّة التي تحتضنني، أيتها الدابّة ذات العيون العنبرية الشفافة التي تحمل في عمقها نورا أسود يُحدث الدُّوار، يا دابّة الحب التي لن تكون لها دمعة أبدا، أنت تعرفين ذلك : إن أبي لن يأتي أبدا.

لن يأتي هذا اليوم، ولا في الغد. ولكني سأبقى فوق شجرتي، ثابتة حيث أنا، أنتظر. في بعض الأحيان نريد أن نُرجع العالم إلى الوراء وأن نُعيد الأشياء حيث كانت، أو أن نجعل عاليَه أسفله ثم نرى ماذا سيحدث، أو أن ننام على هذا الأعلى الذي أصبح الآن أسفل.

إن أمي بصدد الذهاب وحدها إلى المدينة. إنها تعود للمرور رافعة عينيها، تنظر في الأشجار محاولة أن تلمحني من شجرة إلى أخرى. ولكنها لا تتوصل إلى ذلك. أما أنا فأراها : وهي تتوجّه نحو البوابة وقبل أن تعيد غلقها، تصرخ مرة أخيرة :

— ليلي بال، ألا ترغبين حقا في مرافقتي ؟

فلتذهبْ إلى هذه المدينة، ولكن وحدها. ستكون فيها نورا يمشي. إنها شقراء. وأنا، ابنتها، سمراء. ستكون ذلك النور وأبي الظل الذي ستلقي به بعيدا بعيدا. وبين هذا النور وهذا الظل سيختفي السرّ ذاته. كل الوقت، تحت اسمه المعروف، السرّ ذاته والصمت الذي يجب أن يحيط به. أيها السر إنك قريب مني. وليلي بال، هل اسمها معروف ؟ هل هذا ممكن يا إلهي ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟

سرّ، في أعلى شجرتي، أحتفظ له بكل المكان الذي يستحقه. وأبي أيضا سيجد مكانه تماما لأني أحتفظ له به كذلك. أبي الذي ذهبنا معه، نحن الثلاثة، هو وأنا والسرّ، للقيام بجولة هناك، في بلاد الأموات. أقول فعلا : معه. لأني وأنا ألاحظ نفسي كل الأيام في المرآة إنما أكتشفه هو. سأرافقه وأحرسه فوق ذلك. وإن افتقدت رؤيته فقد ضاع أينما كان. هل يعرف ذلك ؟ ربما. أو ربما لا. فأنا أحرس الحديقة، وأحرس البيت، وأحرس الغابة والسماء : مثلما يعرفها. ينبغي بصورة خاصة أن لا تأتي دموع وتهطل عليها.

سأذهب لأغني أغنية صغيرة، ربما سيسمعها من هناك حيث هو :

— أيتها الحديقة، حديقتي التي ينضج فيها الصيف. أيتها السماء، سمائي التي تسبح فيها العصافير. يا شجرة السند، شجرتي مثل حصان أمام البيت. أيتها السيارة، عندما تمرين أحيانا. أيتها الأزهار، الأزهار التي تنمو دون

ضجيج. قولي لماذا تغني الطفلة الصغيرة في الشجرة. إن كنت تعرفين ذلك، قولي لماذا ولماذا.

ومع ذلك فهناك لحظات، بعد مرور الوقت، لا نستطيع فيها أيّ شيء لأولئك الذين نحبهم، يمكننا أن نغنّي وأن نضحّي بكل شيء وحتى أن نموت. بطبيعة الحال، فإن الأسباب، حتى بعد فوات الأوان، لن تتوقف عن مواصلة الغناء والتضحية بكل شيء وحتى الموت. نثور في صمت وندرك أنه ينبغي أن نفعل ذلك. وهما كذلك، أبي وأمي، يثوران في صمت. ضد بعضهما لأنهما يعانيان من بعضهما البعض ؟

في بعض الأيام، تصرخ أمي وهي المتحفظة جدّا عادة. ثم تأتي أيام من الهدوء المتعب بانتظارها الطويل لشيء ما – من المحتمل أن تكون الدابّة ذات العيون اللطيفة اللامعة والعمياء التي تتقدم دون أن تخطئ نحو أحدنا. إن الحياة شر يؤخذ بالصبر.

الحديقة باكية منذ ثلاثة أيام، فقد شهدت مرور سيول من المياه كما شهدت مرور عيد القديس يوحنا في الوقت نفسه. مازال الجو ممطرا ظهيرة هذا اليوم، ولكن الشمس ساطعة، والأشجار تكسوها دموع الفرح.

لم تخطئ أمي : لقد كان الجو مرعبا في عيد القديس يوحنا. كانت قد تنبأت بذلك، وها هو المطر ينزل دائما ولكن مع وجود الشمس. كيف عرفت ذلك ؟ ها نحن نتنفس أخيرا، والعالم يتنفس تحت هذه الأمطار التي نصفها ماء ونصفها شمس. سيعود الجو صحوا جميلا دون أن نموت من فرط الحرارة.

لم تحقق أمي أي نصر من وراء كل ذلك، ولا يبدو أنها قد تفطنت لذلك رغم أنها تعرف كثيرا من الأشياء. إنها تعرفها معرفة من يجهل أنه يعرف. وإننا لندفع أغلى الأثمان في سبيل الحصول على ذلك. ولكنها جميلة قبل كل شيء. جميلة كما لا يمكن أن نكون، لدرجة تركك

حائرا لا تملك العبارات التي تعبر بها عن ذلك، بل لحد الإبهار بهيئتها الشبابية التي تحتفظ بها مذ عرفتها. فعيناها على سبيل المثال : فيم تختلف العيون الخضراء عن العيون الأخرى ؟ ومع ذلك فهي كذلك ! وفمها بشفتيه الممتلئتين وحوله الابتسامة. لا يمكن أن نقول شخص ما، و هي بصفة أخص.

انظر إلى هذه الطريقة في الحياة : إنها لا تضحك أو قلّما تفعل ذلك. وعندما يتوجّب الأمر فهي تبتسم نوعا ما من بعيد. وأي ابتسامة إذن إن حصل لها ذلك ! إنها نور من النوع الذّي لا ينتشر حولك إلا في الأحلام.

وهي أيضا الأم التي تتحدث قليلا وتُسرّ أقلّ. إنها تبتسم فينطبع في ذهنك أنها قالت كل شيء. وربما انطبع في ذهنك أحيانا أنها تضع هذه الابتسامة بينها وبينك. إنه ظل انطباع يتوسّط مثل ذلك الذي يتبعها ويتقدّمها في كل مكان. ولكن، هل هي أمي فعلا من يلقي به ؟ ظلّ، على عكس الآخر، لا يُرى رغم ارتباطه الشديد بخطواتها. أو أن تكون أمي هي ظل هذا الظل ؟ لا أدري. لا ندري. و حتى هي لا تدري، ولا تشك فيه. ظل ماكر على كل حال. بصعوبة نتحمل صمت الناس والأمكنة. معها، نحن لا نعرف هذا المشكل.

أحيانا يمكن أن تنطلق فجأة بكلام كثير، كما لو كانت تهرب من هذا الظل وتتمسك بك شريطة أن لا تترك يدها.

وأنت تتساءل إن لم تكن تطلب النجدة في صمت، أو ما شابه ذلك. وإن لم تكن تحرّك يديها كما يفعل الشخص الذي يغرق أو يبعد من حوله أنسجة العناكب.

يحدث هذا في بعض الأحيان ولا يستمر طويلا، ثم تهدأ وتتنفس بعمق. ويعود الظل من جديد شفافا أكثر مما نرغب، إنه هنا، إنه لم يكن أبدا في مكان آخر، إنه لم يتزحزحْ لحظة واحدة. وهو ماكر على الدوام.

تعيش أمي ونعيش نحن في ظل هذا الظل. ينبغي أن نتعوّد على ذلك. إن ذلك لا يزن سوى مثقال ظلّ بعد كل شيء. إذن فنحن نحمل نصيبنا من هذا الثقل. لن نفعل غير ذلك، ولن يعيل صبرنا، لن نسمح لأنفسنا بذلك. ثم إننا متعودون على ذلك، وهو لم يعد يزعجنا. بعد هذا نفكر في شيء أخر. إننا نفكر في كثير من الأشياء الأخرى.

هناك أيضا هذه الأيام التي تتنقل فيها من حجرة إلى أخرى ومن زاوية إلى أخرى من البيت، تتجوّل في الأسفل وفي الأعلى بدون توقف.إنها تبحث وتقوم بذلك بتلك الهيئة المتأكدة من إمكانية وجود ما تبحث عنه. وإن لم تجده فهي تواصل البحث. أعتقد جيدا أنها لن تستعمل طريقة أخرى كما لو كانت تبحث عن نفسها شخصيا. ثم تكفّ عن ذلك وتتخلى عن البحث. وندرك أنها لن تجد شيئا، وتعود، مع ذلك، الأم التي لم تضع أبدا.

ولكنها، وفي الوقت الذي لم أكن أنتظر سؤالها، تسألني :

— ماذا سنفعل، ليلي بال ؟ قولي لي، ليلي بال.

— ممّ أنت خائفة يا أمي ؟ ألست معك ؟

— آه نعم، نعم. أنت لا تخافين أبدا. لا تعرفين الخوف. أنت لن تعرفيه أبدا.

— ما الذي ينبغي معرفته من أجل ذلك يا أمي ؟

— ما ينبغي العثور عليه، والعثور عليه بأي ثمن.

— سنعثر عليه. لا تهتمّي.

— هل أنت متأكدة من ذلك ؟

— أجل.

— إني أبحث منذ زمن طويل جدا.

— سنعثر عليه يا أمي.

— منذ زمن طويل جدا.

ضمّت شفتيها. ألقت نظرة حولها ولم تعد لطرح أي سؤال. إن السؤال موجود في هذه النظرة.

أما أبي الذي عاود الذهاب، فقد ضاع. لم يبق لي إذن غير أمّي. وهي، في البيت، بلا صوت كالماء، هادئة في جيئتها وذهابها. وحتى ذلك فهي تقوم به باحتياطات كبيرة. وحتى الحديقة، فهي تقطعها بخطى مخنوقة مثل الماء الذي يأتي دون سابق إنذار، وإذا به هنا. وإذا تعلق الأمر

بفتح باب ما أو غلقه، فهي تقوم بذلك بحذر شخص يشعر أنه مراقب. أراها تفعل ذلك وأنفاسها محبوسة. هكذا نعيش نحن.

أنا أجلس هادئةٍ في هذه اللحظة، ممسكة نفَسي، وقلمُ الرسم في الهواء، أُنصت وأنتظر هذه الأصوات التي طال انتظارها، أصوات مظلمة، ظلالُ أصوات، أصداء يملك الزمن بينها كامل وقته. إنها أمي التي تمشي مثلما نتقدم في الليل.

أمّي جميلة جدا، ولن أتعب من ترديد ذلك، وهي أكثر جمالا أيضا عندما يعود أبي، عندما يزورنا من جديد. عندها تستعيد الحياة. وطالما استمر ذلك، فهي ترفض أن تكون هذا الشبح الذي يتقدمها ويتبعها. تنتعش ابتسامتها، ويستعيد وجهها حرارته وتعبيره، وكذلك جسدها. ورغم شبابها الدائم فهي تزداد شبابا يوما بعد يوم. ومع مرونتها، فهي تغدو ساقا لهذه الزهرة المتفتحة التي ليست غير مُحيّاها. وتتكلم، وتتكلم. وتحكي، وروحها على شفتيها، كلّ شيء : ما حدث، ولا شيء وكثيرا من الأشياء ! وفي كل مرة أتساءل من أين تأتي بكل ذلك الذي لم يسبق لي أن عرفته. أنا التي أرى كل شيء وأقضي وقتي في رؤية كل شيء، وفي مراقبة كل شيء. وهي التي لا تلاحظ أي شيء أبدا، ينبغي أن نصدّق أنها ترى أشياءًا أكثر.

أمّي، عطرٌ لا يطلبِ غير الانتشار : هذه هي أمي، يسبح فكرها في الهواء فيعطر الجو. ربما كان ذلك بسبب الحب.

أنا كذلك أحبّ أبي، ولكن لن يكون بإمكاني أبدا أن أعطر الجو بهذه الطريقة. أنا أعرف كيف أحدثه خاصة عندما لا يكون معنا. أفعل ذلك حتى يبقى حاضرا طول الوقت الذي يكون فيه غائبا. هل تفعل أمي ذلك، إنها لا تقوله.

إن للآلئ أيامَها الجميلة على ما يبدو. وأمي، في هذه الحالة، لؤلؤة تامة. إنها تدخل أشعتها عندما يذهب أبي بعيدا هناك، لا تنطفئ، كلا، وإنما تخمُد نارها فقط، وتبقى ساهرة. نارٌ سرعان ما تستيقظ بمجرد عودة أبي فتُخرج أشعتها ويُنير محياها، وجسمها وابتسامتها وكل شيء. أما أنا فلست هذا الصنف من النار التي تخمد في وقت أو آخر. الأمر واحد، طول الوقت، بالنسبة لي : أنا أحترق.

في الواقع، نحن الاثنتين نحترق، ولكن كل واحدة على طريقتها، أمّي من الداخل وأنا من الخارج. نحن لا نفعل غير ذلك، نحترق ونسهر. ولا نروم أكثر من ذلك، وإلا كيف نغدو من غير سهر وبدون انتظار ؟

أمي، في النهاية، هي الرقّة بكل عُنفها. والعنف يُقرّبها منا، أما الرّقة فتبعدها. يجب أخذها كما هي، فهي في غضْباتها تكنس كل ما يوجد حولها، وترمي رأسك بأي شيء كان رغم أنها من هؤلاء الأشخاص الذين لا يريدون أبدا تضييع ما يملكون. ولأنها هشّة في حد ذاتها، فهي تتمسك بأكثر الأشياء صغرا، تحميه وتحيطه بعنايتها.

ولكنها، عندما تكون في أسوإ حالاتها، لا تعيره أدنى اهتمام.

إنها تُكره نفسها على أن لا تُظهر أي شيء، وهي تبتغي أن تفرض عليك ذلك بهدوئها وبهيئتها الواثقة. وهي تنجح في ذلك. إنها تتوهّم ولكن ذلك في نظر الناس الذين لا يعرفونها. وفوق كل شيء، فهي إنما تغالط نفسها، وإلى أي حّد، يا إلهي.

وهي، بطبيعة الحال تتحامل كثيرا على نفسها ! ومن أجل ذلك أحبها كثيرا. نحسّ أنها جد ضعيفة، ونرغب عندئذ أن تكون قوية، قوية وحدها، دون أن نضطر إلى مساعدتها، أو نضطر إلى تهدئة نفسها المسكونة بأنواع من الخوف. لقد سبق أن وُضعت في أحد هذه المستشفيات الرهيبة أين نحبس، من أجل العلاج، أشخاصا ليسوا مرضى على الإطلاق. كان ذلك قبل ولادتي. ولحدّ الآن، يبدو أنها لم تستعد عافيتها أو أنها لا تزال تذكر ذلك في بعض الأيام، وتخشى أن نعيدها هناك أو أنها تكون قد احتفظت من ذلك بذكرى باهتة، ولكنها بشعة جدا. إنها ليست في حاجة إلى ذلك ولن تحتاج لذلك أبدا، وليحذر هؤلاء الذين يحاولون لمس شعرة واحدة من شعرها ! إنّ لها عالَمها الخاص وهو يساوي عالما آخر، وربما أكثر.

إنها جد بارعة، ينبغي رؤية ذلك. فهي على العموم، تغني جيدا بصوت جميل جدّا لدرجة أنه يفتح فيك أبواب الجنّة

عندما تشرع في ذلك. حاولْ أن ترافقها وستجد نفسك مجرد صرصور صرّار. وهي ترسم وتلوّن بروعة. وأنا لا أتعب من تأمل يديها حين تبادر للحياكة. إنهما جنّيّتان صغيرتان نشيطتان رائعتان، هاتان اليدان. وإن رقصت... فهي أكثر ما تكون جمالا على وجه الخصوص.

سأقوم الآن مباشرة برواية حكاية لها، كان أبي قد جاءني بها من هناك، من بلاده.

ينبغي عليك حتما أن تسمعي هذه يا أمي. إنها حكاية جاءني بها أبي من سفره الأخير. ينبغي أن أحكيها لك. هل تسمعين ؟

— أنا أسمع، ليلي بال. يمكنك أن تبدئي. أرجو أن لا تكون حكاية حزينة.

— بالعكس، سترين، سأبدأ.

— انهض يا سالم، واذهب لتفتح الباب !

كان ذلك منذ زمن قديم، الزمن الذي كان فيه سحرة. كان أحدهم، وهو يتمتع بسلطان كبير، قد توجه إلى الغلام الصغير الذي يدعى سالم، والذي كان قد اتخذه لخدمته. ورغم قوة سلطان هذا الساحر فهو لم يكن أقل من عجوز شرس حادّ الطباع. كان يفرض على سالم الأشغال الأكثر شقاءا والأكثر تعقيدا غير آبه بسنّه الصغير.

ذات يوم، سمع شخصا يدق باب بيته، فبادر كعادته بالنداء بصوته القبيح :

— انهض يا سالم، واذهب لتفتح !

كان الغلام قد نال نصيبه من السُخرة اليومية. لم يجب، ولم ينهض، وبالتالي لم يذهب لفتح الباب.

كرّر الساحر الأمر. لم يجب سالم، ولم ينهض، ولم يذهب لفتح الباب.

ويتواصل دق الباب من الخارج بإلحاح وبقوة أكبر.

صرخ الساحر العجوز:

— انهض يا سالم و اذهب لتفتح !

عندئذ أكّد الغلام أنه لن يذهب ليفتح الباب.

ولمعاقبة سالم، أمر السيد كلبه وهو يستشيط غضبا :

— بإبليس، انهض واذهب لتعضّ سالم !

أكّد الكلب أنه لن يذهب لعضّ سالم.

ولمعاقبة الكلب، أمر العجوز عصاه، وهو يزداد غضبا على غضب :

— بإبليس، انهضي واذهبي لضرب الكلب !

أكّدت العصا كذلك أنها لن تذهب لضرب الكلب.

ولمعاقبة العصا، أمر الساحر النار، وهو يكاد يفقد وعيه :

— بإبليس، انهضي واذهبي لحرق العصا !

أكّدت النار بدورها أنها لن تذهب لحرق العصا.

ولمعاقبة النار، أمر السيد الكبير الماء، وهو لا يكاد يتماسك من الغيظ :

— بإبليس، اجرِ واذهب لإطفاء النار !

أكّد الماء أيضاً أنه لن يجري لإطفاء النار.

ولمعاقبة الماء، نادى السيد حماره وأمره بشربه دون أن ينسى ذكر إبليس.

أكّد الحمار حينئذ أنه لن يشرب الماء.

وهكذا، لم يفتح سالم الباب، والكلب لم يعضه، والعصا لم تضرب الكلب، والنار لم تحرق العصا، والماء لم يطفئ النار، والحمار لم يشرب الماء، وتحتم على الساحر أن يذهب ليفتح الباب بنفسه.

... مشينا نحن على طول الطريق، ووجدنا كيسا من اللآلئ : أما الكبيرة فهي لي، وأما الصغيرة فهي لك أنت...

قالت أمي :

— أيّ حكاية جميلة ! وقد انتهت نهاية حسنة فعلا.

— أليس كذلك يا أمي ؟ لقد قلت لك ذلك.

— لم أفهم فقط لماذا وُجدت هذه اللآلئ على قارعة الطريق، لو كانت لها على الأقل علاقة ما بالحكاية، ولكن هذا جميل أيضا.

— هناك، تنتهي الحكايات دائما هكذا، باللآلئ.

— أرجو أن يأتينا أبوك بحكايات أخرى في المرّة القادمة. أعني حكايات مثل هذه، وليس اللآلئ.

— ولم لا اللآلئ أيضا ؟

— في الأصل، لم لا اللآلئ ؟ أنت محقة، ليلي بال.

عدت من مدرسة الموسيقى. ماذا ؟ كيف ؟ باب البيت مفتوح على مصراعيه ؟ باب البيت مفتوح على آخره ؟

بعد تسلّق عتبات السلّم بسرعة، ها أنذا، بعد ست عتبات، أنا أفكر : أنا أمام فراغ يمد إليّ ذراعيه. هل أدخل ؟ أين ؟ وأفكر : أنا واقفة على حافة هاوية. العالم في حد ذاته من حولنا خلا من جوّه، ومن منظر أشجاره، من الغاب، من السماء، ومن النور، وهذا ما يحتويك عادة في وعاء حسنه. وهذه العادة : دقّ الجرس لأكثر من مرة ليُفتح لي الباب من طرف أمّي – أو أبي عندما يكون هنا، ولكنه لم يعد هنا منذ بعض الوقت.

وماذا لو دققت الجرس ؟

وماذا لو انهار البيت فجأة ؟ وما الذي سيترتب عن ذلك.

دخلت عبر الباب المفتوح عن آخره. لامست عند مروري مرآة المدخل. فاجأت فيها رأس عقعق غريب

بريشه الأسود الأشعث. ليس ذاك سواي. شكرا لك أيتها المرآة. وأتحسّس : ولا أي اهتزاز في الهواء، ولا أي شخص. انتظرت، وأنا متوقفة، يملأني الخوف من أن يسقط شيء ما فوقي، أو أن ينفجر عليّ، أو يتحطم أو يصرخ. أو أن يفعل شيء ما شيئا ما مُرْ.. عبًا. ولم لا مع ثقل هذا الصمت ؟

انطلاقا من أسفل الدّرج الداخلي وأنا أدندن إلى غاية الطابق الأعلى :

— ماموشكا، ها أنا قد وصلت ! أين أنت ؟

ما من جواب ولو صغير. صعدت عتبة ثم توقفت، عتبة أخرى وتوقفت، ولكن مع الاستمرار في الدندنة :

— أين أنت ! ماموشكا !

لا شيء. لا يوجد غير صوتي الذي يرتد إليّ من الأعلى أين توجد، مع ذلك، أمي، أنا أعرف ذلك. إنها هناك. ولكنها لا تريد أن ترد عليّ. هناك شيء سيرد عليّ إن لم تكن هي، وسأحكي له كيف جرت الأمور جيّدًا في مدرسة الموسيقى.

أجل، لقد مرّ كل شيء على ما يرام. وصرختُ في بئر السّلّم :

— أجل، لقد مرّ كل شيء على ما يرام. لو كنت تدرين...

ولكن من ؟ ماموشكا ؟ الشيء ؟ من هذه أو ذاك، من يسمعني الآن ؟

وضعت أول قدم في المطبخ فكانت أمّي أول من رأيت نائمة على الطاولة، ووجها ملتصق بالقماش المشمع، وذراعاها ممدودتان أمامها. ألقيت بأدواتي وأسرعت :

— ماموشكا ! ماموشكا !

انحنيت عليها، رقدت عليها، وهززتها.

— لا، ماموشكا، لا.

كل ما يمكن أن يحدث ! نحن دائما أمام شيء ما لا نستطيع أن نسيطر عليه. فكرت : وماذا عن هذه السكاكين الطويلة الكبيرة التي تملأ الأدراج ! حاولت أن أحرّكها، أن أقلبها على الجانب، لأرى ماذا حدث. مستحيل، إنها ثقيلة جدا. ولكن لا داعي للانزعاج، فلا وجود لشيء غير طبيعي.

هذا ما يمكن أن يكون قد حدث : لا بد أن أبي قد هاتف وقال لها – لا يمكن أن نعرف ماذا قال ولكنه جعلها في هذه الحالة. فقد سبق أن حدث هذا. أو أنه على العكس لم يهاتف في حين كانت تنتظر مكالمة منه. أو أنه كاتبها. أو لأنه لم يكتب لها وكان ساعي البريد قد مرّ. أنا أعرفها. أنا أعرفها. مستعدة في كل ثانية لتموت بسبب كل شيء، ولأجل هذا السبب أكثر من أي شيء آخر. أمي الشقية !

لقد انهارت إذن على هذه الطاولة حيث لا تزال نائمة. من حسن الحظ أن الطاولة كانت موجودة هنا وإلا لكانت قد انهارت على الأرض. وأنا نصف ممددة عليها، ونصفي

الآخر على الجانب، لمحت عينيها وهي تحْولّ بشكل مرعب، وترمي بنظرة باردة كالصخر.

— مرّري يدك على جبيني، ليلي بال، قالت وهي تتنهّد تنهّد شبح. أجل هكذا وعلى الوجه أيضا.

أي حنان، على وجه أمي هذا : لقد انتابتني ذبذبات كهربائية في أطراف أصابعي. إنه تيار جعلني أرتعد وترتعد الدموع التي تَخزُ عينيّ. ولكني ابتلعت كل تلك الدموع على كثرتها. أردت أن أمنعها من أن تهطل عليّ لأنه لا ينبغي أن أتوقف عن مداعبة جبين ماموشكا ووجها، رغم هذه الوخزات في أطراف الأصابع وفي العينين.

وبعد ذلك، قالت بصوتها العادي :

— أشعر أني أفضل، ولكن واصلي قليلا، ليلي بال.

وفي الأخير، استعانت بمرفقيها واعتدلت وتركت نفسها تنزلق على المقعد، في مكانها، على طول الطاولة. وهي جالسة على تلك الحال، كانت هي من أخذت وجهي هذه المرة بين يديها. تأملتني بابتسامةٍ من كان يريد أن يقدّم لك هدية.

ولكن الكلمات فلتت منها شاكية كما لو كانت تطلب العفو :

— وهل ذهبت إلى مدرسة الموسيقى ؟ أرجو أن يكون كل شيء قد مرّ على ما يرام بالنسبة إليك.

آه من أمي، أمي التي لا تنتظر إجابتي وتتابع :

— هيّا نذهب لتحضير الشاي، ليلي بال، سترين، سيكون طيبا. إنه شاي أخضر بالنعناع. أنت تحبين ذلك.

هي لفتة من أبي، هذا الشاي الأخضر وهذا النعناع اللذان لهما رائحة بلده، هنالك، البلد الذي حتى وإن كنت لا أعرفه، فأنا الآن أعرف رائحته. أبي الذي يغدو ثم يأتي ثم يغدو من جديد، دون أن يكلّ. أنا أفهمه. سينتهي حتما إلى أن يدرك، في لحظة أو أخرى، أنه الأكثر غربة هنا، في هذا البلد وفي هذا البيت معنا. عندما أصير كبيرة، أشعر أنا أيضا أني سأكون غريبة.

نهضت أمّي لتذهب وتضع بنفسها الماء ليغلي دون أن تنتظر مني ذلك.

— هل أُخرج الفناجين الجميلة، قلت ذلك حتى أكون نافعة.

— بكل تأكيد، ليلي بال.

هذه الفناجين هي لفتة أخرى من أبي. وهي مذهّبة ومزيّنة بأزهار من نقاط صغيرة من الطلاء الخزفي، كم أحبها. وضعت الفنجانين اللذين أخذتهما من الخزانة كل مع صحنه في المكان الذي كان يشغله جسد أمي على الطاولة. وبعد ذلك حملت علبة البسكويت.

أخذتْ المغلاة تصفّر صفيرا مزعجا كما لو كانت قطارا

سيفوتنا. توجهتْ أمّي نحوها ونزعتها من فوق النار لتسكب من مائها في إبريق الشاي، لم يعد هناك أي صفير، ولكن في بيت خشبي، في أقصى الشمال، انتشرت رائحة شرقية زكية، هي رائحة هذا الشاي.

جلست أمي من جديد في هدوء تام، وانهمكت الآن في تحضيره. وانتهت الأزمة. وأمّي ؟ إنها تشبه الوقت الذي نحن فيه الآن : غيمة، ويصبح العالم كله مظلما، وبعد مرور الغيمة : يعود العالم صحوا وكله ضحك وفرح.

لم يبق من ذلك الموقف المؤلم الذي كاد يمحي ملامحها سوى مجرد ذكرى.

قالت فجأة، والفنجان قرب شفتيها، وهي على وشك امتصاص جرعة من الشاي الفائر، وعيناها مركزتان علي :

— آه من هذا الشَّعر يا ليلي بال !

— ماذا، ما به شعري ؟

— لو رأيت كيف ينتصب فوق رأسك !

مرّرت يدي فوقه. ابتسمت أمّي وقالت.

— كأنه قنفذ.

تظاهرت بالغباء :

— قنفذ يخز ؟ أين يوجد هذا القنفذ الذي يخز ؟

— قنفذ ! هلا سرّحت لك شعرك قليلا ؟ ولكن بعد الشاي.

— تفعلين خيرا يا أمّي. لقد سبق لي أن شاهدت نفسي في المرآة عندما كنت في الأسفل.

بعد ازدراد الشاي والحلويات الصغيرة، ووضع الفنجانين بصحنيهما في حوض المغسلة، وجدت نفسي من جديد أمام المرآة ذات الإطار الذهبي التي في غرفتهما على الجانب الآخر. كانت رأسي هي الوحيدة الظاهرة وكأنها طافية على ماء راكد ولاشيء آخر. أما أمّي فلم أعد ألمح منها أو أكاد غير هاتين اليدين !

كنت أنظر لنفسي في الوقت الذي كانت فيه هذه النوارس تتهاوى فوق شعري كما لو كانت تبحث فيه : ربما عرفتُ الجواب خلال دقيقة واحدة. ولكني في ظرف دقيقة أغمضت عينيّ وقلت لنفسي : تفاحة بعرف من الريش الأسود. كيف تبني عشها فيه ؟ وإن لم تكن تفاحة، فهي قنديل تراقبها شعلتُه من خلال الثقوب. ومن هذا الذي ليس بوهيميا وله سحنة هؤلاء البوهيميين الرائعين الذين نلتقي بهم في المدينة وسط حشد من النوارس الممتقعة اللون المتجمدة ؟

لا تنفتح عيناي إلا لترى نفسها، قطعتين من ليل، تتقدان بشكل ساخر، فرحتين جدا لكونهما ليستا شظايا زجاج باهتة. وبدوري أسخر منها وأقول : بل بكل تأكيد ! إن لي رأس عقعق ضاحك !

سأغدو كبيرة مثل أمّي وحتّى أكبر منها، ربما يكون ذلك غدا. فأنا الآن أصل إلى ما فوق خصرها. أطول منها، أكبر سنا، وأكثر قوة. لماذا؟ هكذا. لأنه ببساطة، لكي نتقدم ينبغي على كل واحد أن يعود إلى نقطة الصفر ويعيد من البداية. ينبغي عليك دائما أن تهزم مقاومة ما أو معارضة. وهذه، بلا ريب، مجرد لعبة كذلك. عندما نلعب لعبة الورق، أنا وأبي وأمي، لابد من إعادة توزيع الأوراق بعد كل دور، وعندها يرافق الخوف والأمل اليدين اللتين توزعان. ولكن أمي سرعان ما تملّ من كل الألعاب.

— كم أنت لطيفة عندما تظلين هادئة، ليلي بال، وأنا أسرّح شعرك.

يتجه نظري إلى يديها، وهما تصنعان لي تاجا من نور. تاجا يدور حول نفسه. وبقدر ما يدور بقدر ما أحْولّ في متابعة حركته. والآن كل شيء يدور حوله، وما لا يدور لا يتحرك. إن العالم مزيج من الألم والفرح. فنحن نتأوه من الألم، ونتأوه من الفرح، من هذا ومن ذاك. ولكنهما متساويان. أين تغوص العين عندما تذهب إلى أبعد من الشيء الذي تنظر إليه. أين تضيع، لا ندري. وما يفعل القلب خلال هذا الوقت؟ إنه يرحل، ولكن إلى أين، يا إلهي، إلى أين؟...

هل تم هجرانه؟ هل نحن جميعا مهجورون؟ ممّن ومن ماذا؟ عقدت ذراعيَّ حولي لأحمي نفسي. هناك

صيحات صغيرة تنمو بداخلي، صيحات عصفور سقط من عشه كما يحدث لي في الحديقة حين أكتشف أحد هذه العصافير وليدة اليوم. أنا مثله، أطلب النجدة. إنه أمر فظيع ولكنه ضروري وجميل. الفرخ الذي يسقط ثم يتمسك بكل شيء لأنه يريد أن يعيش، يريد أن يبلغ نهاية هذه الشمس الساقطة من الشجرة ذاتها وهي تتحرك بعيدا في العشب. إنه سليم معافى، وأنا معه، والجميع، وكل العالم. أما الهواء فهو جلدٌ آخر أكثر لطفا من الرقة، فوق جلدك.

— انظري لنفسك ولتسريحة شعرك كيف أصبحت جميلة الآن، يا ليلي بال. ولكن انظري لنفسك جيدا !

إنما خُلقت الطفلة الصغيرة لتفكر في أبيها. أما هو، فيذهب ويجيء. وهي هنا، تبقى لتفكر فيه، وتفكر في العصفور الذي لا يبقى في المكان ذاته مدة طويلة. ما العمل ؟ إنه لمن السعادة، قبل كل شيء، معرفة أنه موجود، وهذه الفكرة تملأني سعادة. لن تفهم أمي ذلك أبدا، لن تفهم أن للأب دائما أسبابا معقولة للذهاب. وذلك لأنها تحبه خلافا لكل منطق.

مسكينة أمي : لأننا لا نحب أبدا، بالقدر الكافي، شخصا ما، فهي تتعب في حب أبي. إنها تتعب، وهذا لا يكفي، هناك مبالغة في الحب. لدينا كل الوقت لنحب أكثر مما نستطيع. وفي كل وقت يعاودنا جوع الحب كله.

إنها، في هذه اللحظة، تقوم بتقشير بقولها، على الطاولة ؛ من كرّاث، وبطاطا، وجزر، وفاصوليا إعدادا للغداء الذي سنتناوله في منتصف النهار. ولكنها أكثر

انتباها إلى أفكارها من اهتمامها بما تفعله يداها، وتفعله مع ذلك بإحكام، ومن غير خطإ.

وفي الوقت ذاته، وعلى الجانب الآخر من الطاولة، كنت أنا أنظف ثمار الفطر التي ذهبت صباحا باكرا لجمعها من الغابة. كنت بصدد فرزها حسب الأنواع، واستبعاد تلك التي تبدو لي مشبوهة، ويمكن الوثوق بي، فأنا أعرفها جيدا. أشمّ رائحتها الخطرة واللطيفة في الوقت ذاته، ومعها يدخل نبت الحراج إلى البيت.

أما الثمار الطيبة منها فتنتهي بثقب إبرة وتنتظم في قلادات على حبل وتعلق في الدهليز لتجف هناك.

كيف نصير بدون هذه الغابة ؟ إنها تصلي من أجلنا.

بمجرد ما يعود أبي للظهور، يكون شغلنا الشاغل فكرة واحدة : القيام معا بجولات كبيرة. وأكون أنا من يسير في الأمام، أنا من يقوده. ولكن ينبغي أن أسهر لأرى إن كان يتبعني، ولا يتماطل في ذلك.

في المرّة الأخيرة، بعد أن مشينا مسافة كبيرة، وتغلغلنا بعيدا بين الأشجار، سألته :

— والآن، كيف تجد نفسك ؟ وماذا تحس ؟

— أنا شبه متأكد، أجابني، أني لو صادفت خروفا في طريقي لالتهمته نيئا تماما. هكذا أحس الآن.

— آه من أبي !

هي لحظات، كلمات وصور تعود هكذا، عندما نعتقد أنها ضاعت. كل ذلك يحيى من جديد ولم نعد ضائعين كما كنا قد فكرنا. ويغدو ذلك حكايتنا. حكاية، بعد أن تكونت لوحدها، تجد طريقها فينا، وتحكي نفسها بنفسها. إن الزمن لا يستطيع أيّ شيء لأن للحكاية وقتها الخاص بها.

إن أبي فأل خير وسعادة حتى هناك حيث يذهب، أين يراه قلبي مُحاطا بنور يُعرف به. إنه هناك، مخفي تماما مثل الشيء الذي تتمسك به كثيرا، ويُقال : إنه طلسم. يكفي أن تفكر فيه لحظة ليقشعر جسدك كله. وتفكر فيه مرة أخرى، فإذا الأمر مماثل، تقشعرّ تماما رغم أنك كنت تفكر وتقول : "ولكني لا أدري أين هو، هذا الشيء." بينما تعرف ذلك تمام المعرفة.

وهذا يشبه ما جاء في الحكاية التي حكاها لي عندما كنت طفلة صغيرة، زهرة طفولة. أنا أذكر ذلك، كانت تسمّى لؤلؤة السعادة، وهذا النوع من الأشياء كان مخفيا فيها. لؤلؤة. حكاية من الحكايات التي يعرف كيف يحكيها، والتي لا يأخذها من الكتب ولكنه يبتدعها لي، أبي. وعندما تبدأ حكاية، يتوقف الزمن.

كان يمكن أن يحدث ذلك في الواقع أيضا، لم تكن أشياءًا جاهزة تماما في ذهنه. ها أنا أستعيد رؤيته في هيئته وهو يتذكّر، وأسترجع الجهد الذي كان يبذله ليتذكر والتعابير

المتغيرة التي كانت تتوالى على وجهه، فتُبدي السرور أو الفزع حسب الموقف. كانت الحكاية تُحكى أيضا على وجهه.

أريد أن ألمس بأصابعي كل الكلمات، كل النقاط الحساسة للحكايات التي هي أيضا حياتنا وعالمنا. أذهب وأجيء سواء في البيت أم في الحديقة، أتسلق الأشجار – وأبحث عن هذه الكلمات، وعن هذه النقاط الحساسة. أفترض أنه مثلما هي في الجسم، مثلما هناك قليل منها في كل مكان. فهل أنجح في وضع الأصبع فوقها ورؤية مدى حساسيتها ؟ لذا فأنا ألمس هنا ثم ألمس هناك.

أما أنا : فإني النقطة الحساسة ذاتها في كل مكان. والرقة والألم في كل مكان. ولا يمكن تسليط الضوء علي لمدة طويلة. سيكون في ذلك كثير من الفرح وكثير من المعاناة. لذا أدور وأتجول هنا وهناك، مجرّبة في مكان أخر، ومحاولة أن أجد عند الآخرين هذه النقاط الحية التي تمكننا من الوجود.

ومرة أخرى نقطة بين تلك النقاط : إذا حصل، ذات يوم، أن تزوج أبي وأمي، هل كانت أمي سترتدي فستانا أبيض ووشاحا أبيض ؟ وهل أكون أنا أول آنسة شرف لها ؟

— كان يمكنني قتله...

اخترقت هذه الكلمات الهواء مثل شعلة. إنها كلمات صدرت عن أمي. وقد لسعت خدّي بلسان نارها، وأخطأ قلبي واحدة من العتبات التي تعوّد على صعودها ونزولها دون أن يتكلم.

— ولكن من هذا، أمي ؟

يا إلهي أيّ اسم ستنطق به ؟ هذا مستحيل، ليس هذا ما أرادت قوله. ليس هذا بالتأكيد.

— ولكن من، يا أمي ؟

— ماذا ؟

— من يمكنك فعلا أن تقتليه، أنت ؟

— هل قلت هذا أنا ؟

— لقد قلته. سمعتك تقولينه.

— كلا ؟...

— أجل لقد قلته، يا ماموشكا.

اتخذت هيئتها التي تتخذها عندما يعترضها مشكل، هيئة من لا يعرف إن كان ينبغي أن يضحك أو يبكي.

— ليلي بال، هل أردت حقّا قول ذلك ؟ ولكن من يمكنني أن أقتل ؟

أيّ سؤال هذا ! لست أنا دائما من يكون مؤهلا للإجابة عليه. وليست هي كذلك، على ما يبدو. سؤال موجّه إلى

شخص ثالث غائب. وإني أتساءل من هو ؟ ولا أجده. لا أجده، لا، لا.

تفحّصتها، إنها هي دائما، لم تتحوّل بعد إلى قاتلة، لم يسبق لها أن تغيّرت أبدا.

— لنرى، لم يكن بإمكاني قول شيء مماثل.

لم يكن بإمكانها قول شيء مماثل. هذا أفضل. اعذريني إن أسأت السمع.

واصلتُ النظر إليها. أرى، يا أمي، أنك لم تقولي أي شيء مماثل وهذا حسن، وكل شيء على ما يرام الآن. لنهدأ نحن الاثنتين، أنا وأنت، لا يمكن أن تكوني قد قلت مثل ذلك.

— لتتأكدي يا أمي، لا يمكن أن تكوني قد قلت ذلك.

هل سمعتني ؟ لست متأكدة من ذلك.

— هل تسمعيني يا أمي ؟

— ماذا أيضا ؟

— أنت لم تريدي قول ذلك، أليس كذلك ؟

— قول ذلك ؟

— قتل شخص ما.

— آه...

— لا تستطيعين ذلك.

وتبع ذلك صمت طويل، لم تخرج منه في الواقع حتى عندما همست وهي تلهث :

— كلا، ليلي بال.

إلى أي مدى نذهب مع الأفكار، أو مع الأشياء تماما كما نقولها، والحال أنها تكفّ مسبقا عن قابلية التحدث بها ؟ وهي أصلا لا تُصدق، ونحن الذين نريد قولها، غير قابلين للتصديق كذلك.

— ولكنك ظننت أنك سمعتني أقول ذلك، أنت فكرت أني أملك الشجاعة لفعل ذلك.

— أمي، لقد رأيته في نظرتك.

— رأيته في نظرتي ؟

— أجل يا أمي. لقد رأيته مكتوبا على وجهك.

لم تضف شيئا في تلك اللحظة. ثم، وبالابتسامة الضعيفة التي تأتيها عندما تكون شاردة، تركت هذه الكلمات تسقط :

— أنت مجنونة. نحن مجنونتان.

وفجأة مالت برأسها على جهة، وانتابتها واحدة من هذه الضحكات التي أعشقها، والتي تجعلها جميلة جدا.

— أنت محقة يا أمي، نحن مجنونتان.

رافقتُ ضحكتها بضحكتي وأنا ألتفّ حول الطاولة لأذهب للجلوس بجانبها ووضع رأسي على كتفها.

الأمهات والآباء: عُمْي يرون شيئا آخر تماما عندما يصلان إلى تبادل الحبّ بطريقة وحشية. يرون شيئا آخر تماما، وأنا أتساءل إن كان ذلك رائعا إلى هذا الحد، في نهاية الأمر، بما أنهم يصبحون عُميا جراء ذلك. لقد سمعتها تقول ذلك.

أنا لا أتمسّك بمعرفة هذا الحب إن كان لا بد أن نقتل ونموت بسببه، وإن كان ذلك كل ما نستطيع فعله لهؤلاء الذين نحبهم، ولاشيء غير ذلك.

هل بلغت هذا الحدّ يا أمي؟ ولكن من تقتلين؟ إن كانت تلك رغبة فهذا يجوز، أما أن تكون إمكانية...فلا، لن أصدق ذلك أبدا.

وضعتُ رأسي تماما على ركبتيها دون أن أطلب رأيها، وحتى تترك لي مكانا فقد ابتعدت قليلا بالمقعد عن الطاولة، لأنها كانت جالسة. وعندها شملتني نظرتُها بغطاء من نور حَضنني بحنانه الموشّى بما قبل الكلمات وحزنها. وبالنسبة لقلبي فقد منحته أجنحة ورغبات في الرقص. أما أنا فلم أخجل من أن أكون سعيدة إلى هذا الحد.

يا إلهي، إني أفقد الثقة. ربما كنت قد فقدتها : من قبل. متى ذلك، من قبل ؟... من قبل ذلك ! ولم يبق لي إلا أن أموت. ربما كنت قد متّ أصلا. إن كان هناك أشخاص لا يحيون، دون أن يموتوا، ونسوا كل شيء، نسوا المعاناة ونسوا أن يطلبوا النجدة، إذن فأنا ميّتة. أشخاص، مثلي، لا يفعلون سوى الاستمرار في أن يكونوا كما هم ويعملوا كما كانوا يعملون دائما.

وحتى ونحن أموات، يمكن أن تكون لدينا أفكار بشعة، من نوع تلك التي هي عندي الآن : أن أقول، وأنا حية أرزق، أني ميّتة. وفي هذه اللحظة لا داعي لأن يعرف ذلك شخص ما، لأننا نصير نحن ذاتنا الآخرين، الناس الذين نقدم لهم عرض أفكارنا وعارنا. وبتخلينا عن كل كبرياء، نلوي أيدينا، ونصرّ أسناننا، ونحني الرأس، أمام من ؟ أمام ذاتنا بعينها.

من الأفضل التصرف مثل الأميرة التي حكى لي أبي حكايتها. كانت هذه الأميرة تختلق كل مساء حكاية تحكيها للملك ؛ زوجها لليلة واحدة حتى لا تموت. وفي الغد تبقى على قيد الحياة. كان من المفروض أن تكون ميتة، ولكنها لم تكن كذلك، وهكذا ليلة بعد ليلة. إنها لا تموت لأنها كانت تحكي حكاياتها لملك كان يريد دائما معرفة الفصل الموالي، وكان يقول : سنرى ذلك في الغد. وعندما يأتي صباح ذلك الغد، يقول الملك مرّة أخرى : سنرى ذلك في الغد. ودائما ولنفس السبب، ما كانت الحكاية لتنتهي.

ذلك ما كان ينبغي عليّ أن أفعله أنا أيضا : أن أحكي حكايات حتى لا أكون ميتة، وحتى لا أحتاج لأن أموت. على كل واحد أن يفكر في ذلك، إن الحياة تريد منا أن نركب طريق السعادة. وإن مجرد السير على هذه الطريق، هو في حدّ ذاته سعادة.

ولكن أين هو الملك الذي سنحكيها له ؟ فنحن لن نجد كل مساء واحدا في متناول اليد. أما أنا فملكي متوفّر تماما : إنه أبي. سيسمعني من هناك حيث ذهب. وأشرع، بل لقد شرعت : لقد ذهب هناك من أجل أن يعود حيّا تماما. لأنه، كثيرا ما يصل الأمر أحيانا، عندما يكون هنا، أن نراه على وشك الموت. وهي اللحظة التي أخشى فيها أكثر أن أفقده، رغم أنه لو كانت هناك جنة، فستكون هذه اللحظة هي المناسبة. لذلك فهو يسافر. عندما نكون

هناك، لا يمكن أن نعرف حتما أنها الجنة. ينبغي أن نطرد منها. وسأكون مضطرة للاعتقاد أنه لا جنة لاثنين أبدا. وأنه إما أن أكون وحدي، وإما أن أكون مع جميع الناس.

لو تحدثنا إلى قلب شخص ما، فأنا أشك في أنه لا يسمع مهما كان بعيدا. وعليه فأنا لا أشك أبدا أن أبي لا يسمعني. هل أقول له أن غرفتهما، هو وأمي، شبه المسحورة، والأشياء المسحورة بداخلها، تنتظره؟ كلا، لن أسمّمه بهذه الأشياء التافهة.

سأتأخر قليلا فقط في هذه الغرفة وبحضور الانتظار الذي نشهده فيها. إن رائحته ترفرف فيها. وجميع الأشياء تشمها، وهي تقوم بالحراسة من أجل حمايتها : الجدران، الزرابي، الأثاث، والكتب. وأنا أنتظر مثلها دون عناء ودون دموع. وأقوم مثلها بالحراسة. وهذا لا يروق كثيرا لأمي، لا يحلو لها أن أظلّ هنا. إنها تجلس في المطبخ مع امرأة أخرى وكل واحدة تحكي حكاياتها للأخرى. هل تفعلان ذلك حتى لا تموتا كذلك؟

إن أمي، بكل تأكيد، تجهل أني عدت خفية، وأنني وحيدة في الغرفة، لقد جعلتها تنساني. بمجرد أن يدير أبي ظهره ويغيب عنا، شيء هنا لا يتأخر عن النوم. ولا يستيقظ إلا عندما أصل أنا، وعندما تشرع أشياءه والأشياء الأخرى من أماكنها في سؤالي، بإلحاحها المعتاد، إن كانت فعلا قد تم التخلي عنها. هذا كل ما تريد أن تعرفه مرة أخرى.

— كلا، قلت لها، وأصبع على فمي، لم يتخلّ عنك. سيعود. وأنا ؟ هل تتصورين أنه تخلى عني ؟ أبدا. لقد ذهب هناك فقط ليعود أكثر حياة ويتقاسم هذه الحياة معنا، نحن الذين سيجدنا تماما كما تركنا، تماما كما لو كان لم يتركنا لحظة واحدة. لنصْمت.

بعد أن اطمأنت هكذا، لم تعد تقول شيئا وعاد للنوم من كان نائما من قبل. بقيت صحبتها لبعض الوقت. فهي، التي تتسلح بالصبر دون أن تريد إظهار حزنها، وأنا، متماثلتان ومتعودتان بالقوة. ولكن أحيانا يكون الانتظار كذلك بكاء في صمت.

وبالنسبة لبعضها ممن فقدت معنى النوم، أقوم إزاءها، مقلّدة الأميرة في لياليها، بسرد حكايتي، الحكاية ذاتها التي سبق أن سمعتها، ولكنها تفضلها عمّا عداها لأنه لا يمكن أن نكرّر سوى الحكايات الجميلة، مثل الزائرات اللاتي نتمتع برؤيتهن من جديد لفرط معرفتنا بهن. وهن، بعد أن يمضين سويعة معنا، يذهبن مسرورات بحسن استقبالهن.

وهكذا، وحتى لا أضني مستمعيّ، فقد واصلت.

قلت : إن بلد أبي، لو كنتَ فيه، صحراء. رمال ورمال. وتخيل هذا الكم من الرمل، لا أحد يستطيع ذلك، لا أحد يبلغه. لا أتحدث عن عد حبات الرمل لأنك لن تعرف النهاية أبدا. وفي هذه الحالة، يكون من الأفضل عد النجوم في السماء. لم أعرف أبدا مثل هذه الكميات من الرمل.

فهناك منه إلى غاية ما يمكنك أن تعد وتمشي. ولا حاجة لنا أن نعرف كيف نعثر على أنفسنا هناك : ففي الصحراء، نحن في الوسط حيثما كنا، يقول أبي. أما أنا فمغروسة في الوسط تماما، هذا الوسط المتواجد في كل مكان، والذي نسافر فيه كذلك دون أن نتحرك لأننا متواجدون دائما حيث يروق لنا أن نكون. وفي الوسط أينما كنّا. كم كرّر أبي ذلك. وبما أنه بلده، فلا يمكننا إلا أن نصدّقه. إنه بلده : وأنا إذن، لن يمنعني أحد من أن أقول أنه بلدي، رغم أن لي بلدا آخر، بلدا مليئا بالثلج أكثر من أي شيء آخر. حيث لا نشتمّ غير رائحة أشجار التنّوب والبرْد. ولكن أين نكون، كما هو الحال هناك، في الوسط أينما كنا. ورملنا نحن هو الثلج. وهكذا فأنا أعرف الرمل والثلج. وفي مكان ما، هما أخ وأخت.

أنا الآن موجودة وسط ثلج الرمال الحارة تماما، بل الحارقة. وأنا القادمة من بلادي، أحب أن تكون هي كذلك في الوسط حيث يمكن القبض على الشمس باليد، في انتظار لا أدري ماذا. وهذا ما سيكون لأن شيئا ما سيحدث، أنا متأكدة من ذلك.

وها قد حدث ! لم يكن بوسعي غير تركيز نظري على الأفق، ورأيت نفسي مدفوعة إلى أبعد، إلى أبعد بدون توقف، لأنتهي إلى أين في هذه الصحراء ؟ لأنتهي أمام خيمة بدوي، مشدودة إلى أعمدة، وهي عبارة عن سقف

مستدير من القماش الأسمر، الخشن مثل جلد عنزة، دون جدران، ومنحدر إلى غاية الأرض.

قرب فتحة الخيمة، يجلس شيخ بلحية بيضاء، وعمامة بيضاء، وكل ما عليه أبيض : شيخ لم يجلس على ما يبدو إلا من أجلي. ومن هيئة جلوسه وهو متقاطع الرجلين، وبلباس أبيض، عرفت أني قد وصلت لأتعرّف عليه، وأنا واقفة بفستان ليس أقل بياضا.

لم يكن لي أبدا جدّ. وأمّا هذا، فقد حزرت من أوّل نظرة أنه والد أبي، وأنه لا يمكن أن يكون غير جدّي. إنه يناسبني. أحسست أني قريبة جدّا منه لدرجة أني، دون أن أبحث للتأكد من ذلك، بادرت :

— سلاما، يا جدّي.

لم يتعجب من ظهور هذه الطفلة الصغيرة أمامه ولا من تحيتها له بذلك الشكل. كما يبدو أنه لم يتفاجأ كثيرا وهو يسمعني أناديه جدّي. ولماذا سيكون كذلك إذا كان جدّي فعلا ؟

لاحظني بعين حادّة وشاردة في الوقت ذاته، واستمر ذلك مدّة من الزمن لم يصدر فيها عنه لا صوت ولا كلمة. وقد لاحظت، حتى تحت لحيته، أن له وجها حفرَه الصمت.

وبعد ذلك، وكما لو كان موجودا في مكان أبعد من مكانه، عزم وقال :

— السلام عليكم.

علينا ؟ ألا يرى أني جئت وحيدة تماما ؟

— أنا وحدي يا جدّي.

— أنت لست وحدك. إنّ لك مَلكا على يمينك، ومَلَكا على شمالك. لاَ وجود لأي شخص وحده.

قلت لنفسي : هذه بداية جيدة، وقد بدأ الأمر بملائكة تحيط بي. سأكون شيطانا لو قلت أني أدركت ذلك إلى حدّ الآن ! ولكن، انطلاقا من هذه الدقيقة، لن أنسى أبدا أيتها الملائكة الخفيّة أنك على جانبيّ.

والآن جاء دوري لأتكلم :

— يا جدّي، أنت لا تعرفنا، أنا وملكيّ. نحن قدمنا من بلاد الثلج، ولا ريب أنك تريد أيضا أن تعترف بنا. وفي البداية، لم كلّ هذا الرمل حولك ؟

لم يتسرّع في الإجابة أكثر من المرّة السابقة. هل فهم على الأقل سؤالي ؟ سأقول نعم. كلّ ما في الأمر أن كلماتي بدت كأنها سقطت في بئر، وما البئر غير عينه اللامعة والمحجوبة التي اختفت فيها.

يتعذر سبر نظره ووجه، ربما كان مستغرقا في لقاء أزلي مع ملائكته. إن البدويّ مقتصد في كلامه، مقتصد في تنفّسه، مقتصد في حركاته : في كل شيء عدا وقته، كما قال أبي. لقد أخذ جدّي، الذي كان يسمع أصواتا

أخرى على ما يبدو، كامل وقته. وقد قال ذلك أبي بكل وضوح : إن البدويّ يعرف كيف ينتظر. ينبغي أن تكون لديهم أسباب معقولة ليتصرّفوا كما يفعلون. ماذا يخسرون من وراء ذلك ؟

في الوقت ذاته الذي هو وقته، كان هذا الشيخ الجميل ذو اللحية البيضاء يتناول قهوته. هل سبق لي أن لاحظت ذلك ؟ والريح تموّج الرمل وتنشره دون أن تكفّ عن انتزاع أغنية على الأقل أو شكوى من صفاء الصحراء المبهر، وهو ما تفعله حكاية بالكلمات المكرّرة ذاتها، والوحيدة التي تعرفها.

أعاد جدّي، إلى الطبق الموضوع أمامه، الكأس التي لم يكد يلمسها بعد أن رفعها بوقار إلى شفتيه.

— ما هو الثلج ؟

— ما هو الثلج ؟

— أجيبي على سؤالي. وسأقول لك بعد ذلك لمَ يُحيط بي كلّ هذا الرمل.

أيّ سؤال هذا ! كيف : ما هو الثلج ؟

سقطت من عل، كما لو كنت شجرة في حديقتنا، من أعلى مكان. لم أجدّ ما أجيبه به. جازفت فقط بأن لاحظت له :

— إن معرفة هذا الشيء ليست شيئا يمكن أن يُقال.

ومباشرة ردّ عليّ :

— وكذلك معرفة الرمل لا يمكن أن يقال أيضا.

— إن الثلج ينتج الصمت.

— وكذلك الرمل، فهو ينتج الصمت أيضا.

وأمام إصراره على معرفة ما هو بأي ثمن، أضفت :

— إنه يجبرك في الوقت نفسه على أن تنظر إليه وعلى أن تحافظ على الصمت.

— وكذلك الرمل. إنه يجبر الإنسان، السماء، والأرض على النظر إليه مع الحفاظ على الصمت.

كيف يمكنني أن أشرح له الأمر، رغم أن الثلج شيء سهل جدّا. بحثت ووجدت أني فعلا قد بدأت من النهاية.

— إنه مضيء، لطيف وهو يذوب بين الأصابع.

جمع حفنة من الرمل الذي بدأ يتسرب من يده على شكل خطوط صغيرة.

— مثل هذا ؟ إنه مضيء، ولطيف.

— لا، ليس مثل هذا. ولكنه يقاربه.

— كيف ؟

— إنه بارد جدا ويمكن أن يكون حارّا مثل الريشة.

— إن رمل النهار ريشة حارّة، ورمل الليل ريشة باردة. والخطابات حول شيء ما ليست هي الشيء ذاته.

— وعندما نقول ثلج، رمل، ماذا نفعل ؟

— نقول كلمات. والكلمات تقول ما نريد.

— وكيف نقول شيئا ما ؟

— الشيء لا يقال.

وفي هذه المرّة، وجدت السؤال الجيد وطرحته :

— وما اسمها كلها ؟ لا بدّ أن لها اسما ؟

— ولا واحدة قالت اسمها، حتى لو كان لها اسما.

يا ثلجي المسكين الجميل، إني أتساءل بأي كيفية أصفك لأجعل الجدّ يلمسك بأصبعه فهو لا ينتظر غير ذلك.

أثقل رأسي بالتفكير دون أن أوفّق لأي شيء.

ومن أجل مواساته ومواساة نفسي أكثر، قلت :

— إن الثلج نقيّ.

واستأنف الشيخ على شكل صدى :

— نقيّ، الرمل أيضا يجعل العالم نقيا. ها أنت تعرفين الآن لماذا أحيط نفسي بكل هذا الرمل.

لم يبق لي من ملاحظة أبديها غير هذه :

— العالم أبكم، أليس كذلك ؟

— نحن فقط من نتكلم، ونتكلم من أجل الأشياء.

فكّرت في قرارة نفسي : إن العالم، في هذه الحالة، مثل هؤلاء الأطفال الذين لا ينطقون، الذين تجاوزوا هذا الأمر ويعيشون عيشة حسنة هكذا. إنهم يشبهون الأشياء. ولم لا، إن كانوا يرغبون في ذلك ؟

هي فكرة يستحيل عليّ أن أتحملها رغم كل شيء.

— إن العالم مليء بالأشياء والصور. إنها طريقته الخاصة في الكلام.

— لماذا جئت إلى غاية هنا لتتعلمي ما سبق لك أن عرفته ؟

أردت أن أقول له أني لم أكن أعرف ذلك إلى غاية هذه الدقيقة، أن أقول له أني لم أكن موجودة منذ بضع دقائق فقط أو لسنوات أمامه، بل منذ الأزل. هل أستطيع ذلك ؟ نعم، إذا لم أرْتبْ في أنه قد أدرك ذلك قبلي تماما.

وهذا ما قلته لأنهي الحديث :

— لقد رأيتني جيدا، لقد نظرت إليّ ولم أخْش أن لا تتعرف عليّ أبدا.

انكمشت عيناه في ابتسامة جعلت منهما خَطّيْ ضياء. ابتسامة صامتة مثل ابتسامة الشفتين اللتين أبدتا خطّا كاملا من الأسنان.

أبدى رأيه بصوت عال حتى أسجله :

— سننتظر يومين. وبعد ذلك، سنعرف ماذا ينبغي أن نفعل.

أنا لا أخشى أن أكون قيد الملاحظة مثلما أتصور أنه يفعل. إن إشراق عينيه البعيد يبدو كما لو كان قادما من مكان أبعد بكثير ليبحث عن شيء ما فيّ.

فحصته كذلك محاولة اكتشاف الشيء ذاته عنده.

هل قال يومان ؟ حسنا، فليكن.

عدت أقدّم له نفسي بعد يومين، فاستقبلني بهذه الكلمات :

— بقي علينا أن نفعل كل شيء.

قلت :

— نفعل ماذا ؟.

— كل شيء.

وبإشارة من رأسه دلّني على كثيب أعلى قليلا من إخوته، ولكنه ليس أقل استدارة، وليس أقل نعومة.

— ستذهبين وتغطسين في رمله.

وأمام دهشتي، أردف :

— ثلجنا. ستأخذين أول حمام لك.

ذهبت. سبحت في الرمل. وغمرت جسمي بالرمل. ثم عدت. استقبلني بالابتسامة ذاتها المتوقفة بين جفنين لم ينفتحا على ضوئهما إلا بمقدار سمك شفرة. أما الشفتان فقد انفرجتا أكثر لتكشفا شيئا من بياض الأسنان.

دون أن ينبس بكلمة، سكب القهوة في فنجان أوّل، ثم في فنجان ثان. ومدّ إليّ واحدا.

قلت :

— أنا لا أشرب القهوة،

لم أتركه يعيد الفنجان إلى الطبق دون أن أوضح :

— اللبن، أجل. الماء، نعم. أما القهوة فلا.

هشّ برأسه، والفنجان لا يزال بيده وهي في الهواء، وتمتم بكلمات غير مفهومة :

— لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

ولكنه استعاد صوته :

— أجل، الماء واللبن.

أعاد وضع الفنجان في الطبق، أطال ذراعه نحو كأس.

— والتمر ؟ قال، وهو يقدّم لي حبّتين أخذهما من الكأس.

— أنا أجهل ما هو هذا. ومع ذلك سآكلهما.

قام بانحناءة خفيفة من رأسه تجاهي.

— أنا متشرّف.

جلست قبالته، وقاطعت رجليّ كذلك. وضعت تمرة في فمي. هي أول طعام أتناوله عند جدّي. إنه جديد جدّا، كأنه ذهب يذوب فوق اللسان، وهو بطعم العسل.

— لا يمكنني أن أقول ببساطة...

— إذن، لا تقولي شيئا.

— ... ما هو.

وفي هذه اللّحظة، سدّد نظره على الرمل الذي ضربه براحة يده بحيوية ما كنت أتصوّر أنه يقدر عليها. وهي طريقة للتعبير عن فرحه، بلا شك. كم أنا غبية ! لقد قام بالقبض على دُوَيبة، وحش صغير بمنقار، دون أن نتحدث عن الذَنَب الذي يتلوى بجنون في القبضة المعقودة.

صرخت وأنا أتراجع إلى الوراء :

— آه، لا !

ثم تساءلت، وقد فقدت الشعور بالأمان :

— ما هذا ؟

لم أر أبدا أمثال هذا، الجلد مُرصّع بالفيروز، ومظهره متوحّش جدّا حتى وهو مقبوض في اليد. ومع ذلك فهي دابّة مؤثرة بهذا الخوف الذي يجعلها تضرب بذنبها وتَخفق جفونها. أيّ وحش مسكين !

— هل تعرفين ما عندي هنا ؟ سأل جدي وهو ينظر إلى قبضته.

هززت رأسي بخصلاته.

— كلا.

— رفيقي الوفيّ. ستأخذينه.

— أنا، آخذه !

انقبضت، انتابتني قشعريرة، وتراجعت إلى الخلف. ولكن صوتا همس لي : "لا بد من ذلك، ليلي بال." وأومأت :

— نعم.

— إنه يعرف كل شيء عن الصحراء. عندما يقول لك ما يعرف، اتركيه يذهب. اذهبي، عودي إلى الكثبان.

هي الكثبان ذاتها، عاد ليرينيها من جديد بقبضته المغلقة على الدابّة. تمتمت نعم مخنوقة، واستقبلت، وأنا أقرب إلى الموت منّي إلى الحياة، الوحش القشري الذي بدا أن قلبه، من خلال حلقه، يدق أقوى من قلبي أنا. وعيناه تبدوان كما لو كانت تذرف دموعا. وفجأة شعرت نحوه بالشفقة أكثر من الخوف. بقي هادئا تماما في يدي كما لو كان قد شعر فجأة بالأمان.

ذهبت بعيدا عن الخيمة لأجلس على الرمل، الشيء الوحيد الذي يوجد هنا مع السماء. كثبان وردية جدا

بقدر زرقة السماء، على مدى امتداد البصر، ولا شيء بعد. حتى أن النور، في تقلباته أحيانا، يكسو الصحراء بلون أبيض بياض الثلج.

طرحت على نفسي أطنانا من الأسئلة حول هذا الحيوان المسكين، ماذا أفعل به، وما دوري في كل هذا، أنا التي أفكر هنا في وسط صحراء، في نهاية الأشياء، ولكني وجدت في هذه النهاية والد أبي، شيخ أهدى لي كما هو الحال عضاية أو حيّة أسطورية لا يهم كثيرا، والذي ليس له من سند يعول عليه غيره، وبعد ذلك لا نعرف شيئا كثيرا. أحسست بقشعريرات تبلغ حدّ الألم أحيانا عندما تتصاعد الحرارة في الجو ! ماذا يمكن أن يعلّمني هذا الوحش الشقي ؟ هل يحدثني، وكيف يمكنه ذلك ؟

جلست على كثيبي مفكّرةً أنظر إلى الرمل، المنتشر إلى غاية الأفق، وهو يحلم، وإلى السماء التي تنبثق منه كالدفْق لتمتد فوقه، وهذا وحده كاف ليأخذ بمجامع قلبك، هذه البداية التي لا نهاية لها. إنها فراغ يأكل العين. ونوره يتنكّر أحيانا في شخوص. يخرج هذا الأخير من باب زاغت عن الهواء، ثم يمرّ إلى الهجوم عليك بصورة سريعة مبهرة، ولكنك لا تدرك شيئا عنه ولا تحسّ شيئا ثم يمضي متسلّلا عبر باب آخر فيدخل ويتحلل.

ولكن لنفترض أن هذه الدويبة تتكلم، ماذا يمكنها أن تقول لي وما الفائدة التي أجنيها منها ؟ مازلت أمسك بها

في يدي، وباشمئزاز كبير دائما، محتاطة لنفسي وحذرة حتى لا أخنقها. لم تتفوه بكلمة منذ البداية. حركت ذنبها ولكن ليس كثيرا. لو نامت، لو ذرفت دموعا، فذلك كل ما تحسن فعله. لا بد أنها تتحدث في الداخل من أجل استعمالها الشخصي.

أنا أعرف : إن الدواب تتكلم بطريقة مغايرة ولو انتبهنا إلى ما تقول، فينبغي أن نتركها تفعل وننتظر. سأقوم بوضع هذه على الرمل، ولتذهب حيثما يحلو لها، وسنرى.

بمجرد ما فكرت، نفّذت. بدت متفاجئة للوهلة الأولى وهي تحسّ أنها حرة الحركة. أخذت تستعيد حركتها شيئا فشيئا، قطعة قطعة، في مكانها. ثم زحفت، تقدمت، وتجولت من جهة إلى أخرى دون أن تذهب بعيدا جدا. هل أحست بالأمان أم لا، لا يمكننا قول ذلك الآن. واصلت على النحو ذاته، وثانية بعد ذلك، تبخّرت ! اختفت، ولم أعد أراها. لقد غاصت، وذابت في الرمل مخلّفة فقط الآثار التي رسمتها مخالبها، آثار جد واضحة كما لو كانت منحوتة على رخام. هكذا كانت هذه الصحراء بكل رمالها صفحتها البيضاء، وقد وضعت عليها كتابتها. هل هذه هي طريقة كلامها ؟

ولكن ماذا كتبت ؟ تأملت جيدا هذه الخربشات وأخذت أدرسها. لم أجد منها غير وجع الرأس. ولا إشارة

واحدة، إنها لا تكلّمني. وبعنادي المعهود، بقيت لفترة أخرى أحاول فكّ تلك الرموز.

لا شيء على الإطلاق، لم أتقدم كثيرا.

تخليت عن المحاولة، يكفيني هذا. سأعود إلى جانب جدّي، وسأعلمه بما جرى. وإن تلخّص كل ذلك في لا شيء. لا كلام ولا جواب عن أي سؤال. ولكني الآن سأطلب منه أن يشرح لي.

كما تركته، وجدته : جالسا عند مدخل خيمته، رجلاه متقاطعتان، والابتسامة تتسرب من بين عينيه الحادتين اللتين تضيئان لحيته البيضاء. هل كان يتوقع عودتي بهذه السرعة؟ حسبما أرى، فأنا لا أدري شيئا ولن أجازف بقول ذلك. نعم أم لا. ولو كان مثل هذا الشيء ممكنا لقلت الاثنين.

دون أن أثقل نفسي بكلمات غير مجدية، قصصت عليه ما حدث لرفيقه الأسطوري، إن كان هذا هو اسمه الحقيقي، وكيف أنه لم يفكر إلا في رسم نقرات صغيرة برجليه على الرمل، دون أن يتنازل فيفتح فمه أو أن يتكرّم عليّ بكشف.

— لقد هيّأ نفسه للهروب خاصة، قبل أن يكون لي الوقت لأنتبه إلى ذلك، قلت هذا منهية الحديث.

— الأطلال ! تساءل السيد العجوز متعجبا، والحلق منقبض من شدّة الانفعال وهو ما تركني مشدوهة مماما.

— الـ ماذا ؟

— ارجعي حيث وضعت الدابة واقرئي ما كتبتْ. هي أطلال لا شك فيها، اذهبي يَا بنيتي.

جريت نحو المكان الذي ظننت أني سأجد فيه ما يشبه الكتابة للحية الأسطورية. لم تعد هناك ! لقد عاد الرمل صفحة بيضاء ناصعة كما كان وكما يكون أبدا، فالريح، هذه الريح التي لا تتوقف في أي لحظة ولا تستريح، نفختها، ولضعفها الواضح فقد محتها، لقد تأخر الوقت كثيرا.

وضد كل أمل، وكل منطق، واصلت أبحاثي. عناءٌ ضائع. سأذهب مع ذلك إلى عمق ذاتي كما لو كان قد حصل.

ولما رجعت إلى الخيمة، توقفت عند العتبة، وقلت :

— لقد تأخر الوقت كثيرا. لقد مرت عليها الريح.

ولكن لا وجود لجدي. فالشيخ الجميل المتشح بالأبيض تماما ليس في خيمته، وهو غير موجود في أي مكان. لا أثر لحضوره على مدى امتداد الصحراء.

لذا أخذت مكانه.

تزعم أمي أنني مسرنمة.

— وبداية، من هو المسرنم ؟

— إنه... الشخص الذي يمشي على حافة سطح وهو نائم، ويبدو في الوقت ذاته كأنه يسير في طريق كبيرة.

— ولكن يا أمي، ينبغي أن يكون ذلك منظرا مؤثرا بطريقة رهيبة، أليس كذلك ؟

— بطريقة رهيبة. إننا نصاب بكل بساطة بنوع من الرعب. ونرغب في تقديم النجدة للشخص وفي اللحظة ذاتها نخاف أن نراه يسقط من السطح.

— وهذا هي أنا ؟

— أجل. فأنت لا ترين الأشياء، وإنما ترين من خلال الأشياء، مع الاعتقاد بأنك ترينها.

— هل سبق لي أن صعدت فوق بيتنا لأسير فوقه وأنا نائمة ؟

آه، اسكتي يا ليلي بال. وددت لو أني لم أقل أشياءًا مماثلة.

— ولكنك قلتها.

— قلتها، ولكني لا أريد أن أسمعك تكرّرينها.

— أما أنا فأتمنى أن يحدث لي ذلك، مرة واحدة على الأقل ! أعتقد أن أيّ شخص يريد أن يحدث له ذلك مرّة على الأقل.

— اسكتي، اسكتي إذن.

وفي الوقت الذي كان صوتها يقول شيئا مرعبا، كانت عيناها تبتسمان.

— هل تعرفين، يا أمي، ما معنى أن تجدي نفسك أمام باب مغلق، ربما على لاشيء، وربما أيضا على شيء ما لا فكرة لك عنه، شيئا ما فظيعا لفرط تخيله، وأنك، تحت ضغط حب الاطلاع الذي يلتهمك، تضعين يدك على المقبض وتتساءلين هل أفتح أو لا أفتح ؟ وأنت ترتجفين من الخوف، وتحاولين أن تحزري من يترصّد، ومن يقف وينتظر خلف الباب، وتخافين حتى أن تنفتح وحدها وتكشفين الشيء المتعذر عن العينين وعن التفكير، فتبقين، وأنت باردة قاسية، في مكانك لا تجرئين على إدارة المقبض ولكن دون أن ترفعي اليد عنه وتتراجعي، وعندها تفكرين أنك قد توقفت عن الحياة، وأن كلّ شيء ملتهب حولك، العالم يحترق، والرجال، والنساء، ويغدو

أطفال هذا العالم مجرد مشاعل. كلا، أنا لا أرى، أنا لا أسافر عبر الأشياء. أنا، بالأحرى، أصطدم بكل واحد منها كما اصطدمت مع هذه الباب، وأنتظر... كما هو الحال مع هذه الباب.

— أنا لا أفهمك، يا ليلي بال. لماذا تستمتعين بتخويفي ؟

وابتسمت عيناها تلك الابتسامة التي توجهها دائما، إلى شخص ثالث غير مرئي عندما نكون وحدنا نحن الاثنتين. توجهها كنداء لهذا الشخص الآخر، لأنه لا ينبغي بالنسبة إليها الحديث عن ذلك. ولكن سرعان ما نبلغ معها نهاية الكلام. سرعان ما نكون بعيدا، في مكان آخر، في حياة حرّة من ذكريات حسنة أو سيئة، في جزر، في أرخبيلات على طول المياه. أو كما هو الحال في هذا الفضاء الذي أعرفه الآن حيث سرعان ما نجد أنفسنا كذلك في نهاية الصمت، فضاء خفيف ولكنه ثقيل في أباعده بوزن لا يشوبه الشك، ملفوف تماما في شفافية لا تقبل الرد وتأخذ أجراسا متقاربة دون أن تكون قريبة أكثر، هذا الفضاء من الرمل، نعم، أين التقيت جدي، الشيخ الجميل، أين أنا من جديد، أين أغدو وأروح. أنا عائدة هناك حتى لو كنت هنا.

هناك دائما هذه اللّحظة التي تعود، اللّحظة التي لا نكون قد ضعنا فيها بعد، والتي تتكرر، فنكون أقل ضياعا

مما كنّا أبدا. آه، يا أبي، يا أبي... هنا حكايتنا نحن الاثنين، وستكون دائما حكايتنا.

لم ألتق بك هناك. إنه بلدك وسيظل كذلك، ولكني لم ألتق بك فيه. لم ألقك أنت. لقد التقيت أباك، جدّي، هو فعلا من هناك، مرتديا ملابس بيضاء مماما. أنتما لا تتشابهان كثيرا، الأب والابن. إن نظرة أبيك نور كوكب يتسرب من خلال جفون لا تكاد تنشقّ. وكذلك الأمر عندما تحدق فيك عيناه، فكأن نجما يحدق فيك ويبدو كأنه يبتسم لك والحال أنه ربما لا يفعل أي شيء من ذلك. والنور الأزرق ذاته يمر بين شفتيه مع بعض الكلمات التي قد يتلفظ بها عرضا.

لم يقل أبدا أنه يحبني. وتكون الابتسامة المضاعفة لعينيه وشفتيه قد قالت ذلك كثيرا. دائما شحيح في الكلام. أنت أيضا يا أبي شحيح في الكلام، ولكن بطريقة أخرى، طريقة أولئك الذين لا يتكلمون إلا بكلمات مضبوطة وبالعدد المضبوط من الكلمات الواجبة.

هي صورة لا تتغير في الصحراء : صورة جدي الجالس عند مدخل خيمته، في صمت، يرفع يده المدبوغة ثم يشير ببساطة إلى شساعة الرمال. وما فهمته آنذاك : أن ابتسامة النجم كانت تدعوني أن أتأمل العالم جيدا عندما يكون صحراء وأن أشفق عليه. أن أشفق عليه رغم عظمة الصحراء.

أما هو فيحرس هذه الرمال، وهو جالس في وسطها، هذا الوسط الذي يتواجد في كل مكان. كما أحرس أنا هنا الأشجار والأزهار، الحقول والبحيرات، والرائحة العطنة لأوراق الخريف المتساقطة. والثلج. الثلج الذي لم يعد يقبل بحدود أكثر مما يقبل بها رمل الصحراء. كل الأشياء كما هي وكما تريد أن تكون : لا تفنى حسب قدرها الوحيد.

يعرف جدي يوم وفاته، وعلى ما يبدو، فأنا أيضا أعرف يوم وفاتي. وبيننا أبي الذي هو أبي وابنه على مسافة متساوية، ولكن بالصوت نفسه الناطق في الدم، نفس الصوت المتنقل صعودا و نزولا من أحدنا، نحن الثلاثة، للآخر، مهما كان أحدنا (جدي) جالسا في صحراء والآخر (أنا) في وسط الغابات، وأبي بيننا. فهذه الغابة، على باب بيتنا، حيث نتواجد فعلا أنا وأمي في هذه الظهيرة الهادئة والجميلة بأنوارها وظلالها المتأرجحة، تحيطنا وتداعبنا من خلال الأشجار. هي لحظة تبدو لي مناسبة تماما لأطلب من أمي :

— هل تعرفين أنت يوم وفاتك ؟ أنا، نعم.

انتابها في البداية ما يشبه الشهقة، من تلك التي تصيبك عندما يُلقى على وجهك دلو ماء.

— آه، يا ليلي بال، ستجعلينني مجنونة بهذا النوع من الأسئلة المستحيلة !

ثم وبهذا الصوت الذي يحاكي صوت الغريق الذي لم يستعد بعد أنفاسه، أضافت :

— ابنتي المسكينة.

— لماذا ابنتك المسكينة ؟ لو عرفنا فعلا ما هو مخبأ خلف الأشياء، لو عرفنا كنه كل شيء.

أخرجت لها لساني. ضمتني بين ذراعيها، دست وجهي في ثديها، ورائحتها. وهو ما لا تفعله غالبا : لقد أصابها الخوف من أجلي بلا ريب، في هذه الدقيقة، أو أنها تملكتها شفقة عليّ. إنه إحساس مسلّ عندما يكون إحساسا مريحا. بقيت ملتصقة بجسمها الناعم ورائحتها المطمئنة. صار سكان الغابة الذين يراقبوننا من أشجار : التنوب، السند، الزعرور، العوسج والسرخس أكثر فأكثر عتمة، ظلال محاطة بالنور، ولكنها جميعها، منتبهة، دون أن يبدو عليها ذلك، إلى ما يمكن أن يأتيَ من بعيد فيفاجئ، ويعكر صفو هذا السلام. إنها بكل تأكيد، مهتمة جدا بذلك مثلنا تماما.

يبقى الشيء الذي لا نستطيع أبدا القضاء عليه. الشيء العظيم المقاوم لكل قبضة. وهو السعيد جدا بقدر ما هو حاضر، إنه يريد أن يظهر نفسه إليك. إنه حظ. وهكذا، فبعد أن عاينت اختفاء الآثار المرسومة من طرف الحية الأسطورية على الرمل، وقبل ذلك اختفاء الحية الأسطورية

ذاتها، ثم اختفاء جدّي، ولم يبق لي بعد سوى أن أتخذ مكانا تحت الخيمة وأبدأ سهرة لا نهاية لها : رأيت الشيخ العجوز يعود للظهور. من أين ؟ كان عليه هو أن يقول ذلك. كان ببساطة يجلس القرفصاء في الخارج، مستقيم الجذع، ولم تبدر منه سوى كلمة واحدة :

— اشهدي.

قلت :

— عمّاذا ؟

— عما شاهدته عيناك.

— ربما لم تر عيناي أي شيء.

— اشهدي على أنك ربما لم تري أي شيء.

وشدّد على ربما التي لقنته إياها، وفي هذه اللحظة، اعتقدت أنه سيقوم من جديد بالدخول في الرمل، أو الذوبان في الهواء، وهو مستقيم كما كان. ولكن لا شيء من ذلك، فالفكرة لم تراوده. على العكس، لم يسبق له أن ابتسم مثل الآن، أو أبدى وجها أكثر وقارا وثباتا في ضوء لحيته البيضاء المشعّة تماما.

أن أشهد. سبق أن قال لي أنه كان عليّ أن أفعل ذلك. وفي الأخير عهد إليّ بمهمة كان عليّ أن أقوم بها، أو التي كان يحلو له أن يراني أقوم بها. وبدورك أنت يا أمي، هل فهمت الآن ما كنت أريد أن أقول وما ينبغي أن أفعل ؟

— آه، يا بنيتي الصغيرة.

— هل تعتقدين حقا أنني أستحق الرثاء؟ هل أكون مسرنمة لأني في نظرك، لا أرى في كل مكان غير أشباح؟ أنا لا أعاشر أي واحد منها. فالشبح ليس أي شخص بذاته، إنه لا يتكلم. أنا أعرف ذلك. لا يوجد غير الأحياء الذين يمارسون الكلام. إن جدّي، الذي اكتشفته جالسا تحت خيمته في الصحراء، حيّ. أمّا الآن فأنا عندي هدف في الحياة : أن أشهد، بينما كنت في السابق أكتفي بالنظر للأشياء دون أن أفكر في أي شيء. أنظر ثم أنظر. وهو أمر ليس سيّئا ولكنه لا يكفي.

وبعد فهناك كل هذا الرمل الذي لا ينتهي والذي أستطيع أن أذهب فيه بمجرد أن أشعر بثقل الشهادة عليّ، وبمجرد أن أشعر برغبة في التغيير. وعندها سألجأ إلى خيمة جدّي. سأذهب لملاقاته في الصحراء الكبيرة وسيواصل تعليمي ما لا نعلمه. ويكفي لذلك أن ينظر إليّ من بين نافذتي عينيه، فينشأ، خلف جبيني، شيء ما من ذاته. شيء ما... أما أبي، فما عليه سوى أن يغدو ويروح كما يحلو له، أياما معنا وأياما في مكان آخر. أما جدّي فلن يتحرك أبدا من مكانه.

كم سمعت أنه كثيرا ما يحصل أن نكون ظلالا لأنفسنا. هذا لن يحدث لي. فنحن الاثنين، أنا وظلي، نحن

بذاتنا، كل واحد على حدة، كل واحد لنفسه. ليطب لظلي أن يكون مسرنما، أن يكون ظل نفسه شخصيا : في هذه الحالة، هناك أكثر مما نتصور من المسرنمين الذين يتجولون في أرجاء العالم. ما عليكم سوى النظر للناس من حولكم. وأبي أوّلهم، ذلك هو الانطباع الدقيق الذي يوحي به إلي أحيانا. وأمي إذن، لنتكلم عنها ! أن أعرف ذلك فهذا لا يقدّم أي حل لمشاكلي، ولكن الأمر كذلك لكثير من الأشياء. نادرة هي الأشياء التي يمكن أن تقدم لك عزاء.

إن بعضها يسير في طريقه على جهة، والأخرى على الجهة الأخرى، أو أن نتقاطع ولا نرى بعضنا، أو أن نرى بعضنا كما ترى ظلال ظلالا أخرى. وماذا لو أخذنا في التحادث، يا إلهي، ماذا ستجد الظلال لتقول لبعضها بعضا ؟ كلا، فلكونها ظلالا كما هي، ينبغي أن لا نبحث عن مساعدة لديها. سيكون في ذلك مضيعة للوقت.

ربما وجدنا التفسير في خوفنا من التعرف على أنفسنا في الآخرين، وعندها سنخشى أن نكتشف أنفسنا أقل جمالا بكثير مما نريد. صورة لن تشرفنا، بل ربما جعلتنا نتراجع إلى الوراء جرّاء رعبنا. أمّا أنا، فمن حسن حظي أن لي أبي وأمي إلى جانبيّ. وفي ديانة أبي نحن محميون بملكين، أحدهما على اليمين، والآخر على الشمال. وهكذا فأنا عندي أمي وأبي، وملكيّ، أحدهما على اليمين، والآخر على الشمال.

وعند التحية، فإن الناس هناك لا يقولون : "السلام عليك" بل يقولون : "السلام عليكم".

وذلك بسبب الملكين اللذين يرافقانك.

الشيء السحري يقترب. لا نسمعه ولا نراه، بل نحسّه. شيء يتغير كلّما اقترب، إنه يأتي وحده. إنه نور. ولا يمكن أن يميزه غير القلب.

فهو يرى هذه الأعجوبة التي تتقدم والتي تكاد تلمسه. إنها تلمسه. نحن لا نحس شيئا، نحس فقط أننا أكثر حياة وأكثر انقلابا.

وكما لو وُضعت يد في الوقت ذاته على كتفك، فأنت لا تتجرأ على الالتفات لرؤية من وضع هذه اليد على أحد كتفيك. ها أنت تمشي معها : هل هما واحد أو اثنان على جانبيك ؟ ستقول لنفسك هما ! الملكين الحافظين وستتابع طريقك. وفي النهاية تذهب بعيدا جدا. إنك لن تتحرك، ستنتظر أن يعيدوا القبض عليك وأن يعاودوا السير على خطوتك بذاتها. إنك لا تتذكر هذين الإثنين أبدا وهما يرافقانك في كل مكان، والآن ها أنت تتذكرهما. وها أنت تفهم السماء، والأشجار

التي تنصت في الحديقة التي تمتد إلى الغابة، والأرض المتغيرة جدا بكل فصولها والمماثلة جدا لنفسها. منظر نائم فيك، يحيى بدمك، بنفسك، متأكد من الاسترخاء فيك دائما.

هذه اليد على كتفي تعدني بالسعادة. صرخة ستصعد من مكان ما، ربما مني، وسيظهر الوجه الحقيقي لكل شيء، صريحا جدا لدرجة أني لن أتردد في الوثوق بها جميعا وفي أن أعهد بحياتي لها، بعد أن عدت لا أخاف من شيء. إن هذه السعادة تزورني في العمق بكل فرح. وتَصْعد صرخة أخرى.

كنت قد عرفت كل ذلك وكنت قد نسيته. والآن ها أنا أتذكّر، أجل أنا أتذكّر. وهكذا يتذكّرنا ضوء الصباح، وأنا معرقلة في لفات من الأغطية الدافئة، نائمة، وأحس كل شيء : النهار، العالم وأنا ذاتي التي ألهبتها الشمس. لذا فأنا لا أزن أكثر من ثقل ريشة. وبما أني ممددة، فأنا أطفو. فالسعادة لا تعرف غير الارتفاع. هناك لحظات نشعر فيها بذاتنا أكثر من أي شيء آخر في الوجود.

ذاتٌ لا تفعل غير الغدو والرواح في هذا العالم مع ترك صورتها رهينة في كل الأماكن.

صورة لا تمّحي، صورة ستسهر هنا على خلفية من الخضرة والشمس، هناك على مزيد من السماء والرمل. في كل مكان توجد فيه الحياة، وعلى كل مكان يمنحني الحياة.

إن ما لا ينبغي عليّ أن أفعله بصورة خاصة : هو أن أسقط بين مكانين. نعم للسقوط في أحدهما، نعم للسقوط في الآخر، أما بينهما فلا. أريد أن يناديني الواحد انطلاقا من الآخر. وأن أجري فيه، ومباشرة بعد ذلك أجري في مكان آخر.

لأني أعتقد أننا نولد غرباء في كل مكان. ولكن إذا بحثنا عن أماكننا ووجدناها، فعندئذ تصير الأرض أرضنا، ولن تصير هذا العالم البيني المرعب الذي أتحفظ جدا عن التفكير فيه. لقد عدت إلى فكرة أنه يمكن أن لا يكون هناك أيّ شيء أكرهه مثل هذه الفكرة، أن أكون بدون أي مكان.

تعلمت عزف موسيقى باخ على قيثارتي. هي موسيقى تُذكرك بضياع، لا ندري ضياع ماذا. هل هو ضياع أحد هذه الأمكنة ؟ هل هو مكان ضائع دون أن تنتبه لضياعه، وها أنت الآن حزين من أجله. أما هو فقد يكون عرفك بكل أشيائه. إن موسيقى باخ تذكرك إياه وتمنحك أسفا كبيرا ولكنها تمنحك أيضا كثيرا من السلوى.

أنا أذهب وأجيء لأن هذا الرجل الذي هو أبي، هذا الرجل غريب. فهو يحتاج لأن أذهب للبحث عنه في غربته. وأنا هنا في بلدي الشخصي، من أنا، إن لم أكن غريبة أخرى ؟ سيأتي بدوره وينتزعني من غربتي. وإلا سنكون غريبين إضافيين في العالم. إنه بطل وأنا أريد أن أكون واحدة كذلك. هل أنا مجنونة لأتحدث بهذه

الطريقة ؟ عن هذه الأشياء، ولكن من يسمع، من يسمع ما أحاول أن أقول ؟

يجب أن يعود أبي سريعا : هو يعرف كيف يسمعني. وفي انتظار ذلك فأنا الثمرة التي تتأرجح فوق الشجرة، تفاحة، وكم منها في حديقتنا، كم منها وكم منها المُعطرة.

يذكرني هذا بذلك اليوم الذي كان يلاحظ فيه، مستغربا، كيف كنت أقضم إحداها تاركة عليها في كل مرة أثر أسناني. هل كان يرغب في هذه التفاحة ؟ لقد مددتها إليه.

ولكنه قال :

— أنت لا تدرين ما تفعلين، يا بنيتي.

— ماذا يا أبي، ماذا أفعل أنا ؟

— لاشيء.

— لاشيء ؟ إذن خذها.

أخذها، تأملها قليلا. كنت أرى أن حكاية أخرى كانت تدور في رأسه. لم يحكها.

لم يعرف سوى أن يدسّ التفاحة، أو ما بقي منها، في جيب سترته، واعدا :

— سآكلها فيما بعد.

— لَمَ لا الآن ؟ لن تكون طيبة أبد، فيما بعد.

— نعم، نعم، يا بنيتي.

قال نعم، نعم، ولكنه مع ذلك لم يأكلها.

أريد أن أكون، مثل أبي، الطفل الذي كان إسماعيل أول أب له. أبوّة قبل كل الأبوّات، أبوّة سرت في دم أبي ذاته حتى وصلت إليّ. وقد قال : أن الطفل إسماعيل المطرود من البيت الأبوي مع أمه هاجر كان على وشك الموت عطشا، عندها وضعته في دغل يقيه حرارة الشمس، ولكن نبعا من الماء تدفق تحت كعب إسماعيل. عندئذ جاء المَلَك وخاطب الأم : ما بك يا هاجر ؟ لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الطفل في المكان الذي هو فيه. انهضي ! ارفعي الطفل وخذيه من يده لأني سأجعل منه...

ولكني كنت قد تركت أبي يحكي ونمت. لم أعرف أبدا البقية. أحيانا آخذ في تصوّر ما حدث لإسماعيل فيبدو لي أني أسمع صوتا، أعتقد أنه هو. هل يناديني ؟

لا يوجد سوى الرمل ثم الرمل، وصوت أبي : "أيها النهار، النور منزلك. ارفع أكثر فأكثر زرقتك. إلى غاية الصمت. ثم الصراخ."

ولكن ينبغي عليّ أن أبلغ قمة الكثيب الذي حدّده جدّي. فهل ينتهي الأمر بتدفق نبع تحت كعبي ؟ وماذا لو كان هذا النبع قد فتح عينا ؟ ينبغي عليّ أن أبحث عنه. إنه نبع سرّي، والشيخ الجميل يحرس أكثر من صحراء بسيطة.

لقد وصلت فوق الكثيب، إنه برج ناعم، ذائب. تأملت الصحراء التي، من سقطات إلى أخرى ومن ارتدادات إلى أخرى، لا تلهو إلا بالجري وراء بعضها، وبالالتقاء ثم

بالضياع لتتجمع في مكان أبعد. وتتجاوز، وهي ثابتة دائما، بعد سقوط أخير، ما وراء الأفق.

لم تعد خيمة جدّي، هناك، تبدو إلا كنسيج عنكبوت كبير، أسود، منسوج على الرمل. ولكن تحت قدمي، وفي عمق بعيد، ينفتح مقطع جليّ في الجلود الشقراء. هل هو أثر ظل أكثر جلاءًا ؟ غريب، إنه يبدو كما لو كان هنا من مدة طويلة بينما لم يكن هناك أي شيء غير الرمل. إنه يشبه... – لقد سبق أن جئت هنا، كيف لم أتمكن من ملاحظته ؟ إن في ذلك سببا معقولا لي من أجل أن أعود قرب جدّي.

كان جالسا دائما عند مدخل خيمته عندما وصلت وشرعت في الكلام، جالسا دائما. عندها صدع كما لم يسبق له أن فعل أبدا، لقد صرخ :

— النبع !

— النبع، أي نبع ؟

— لقد عاد، لقد عاد إلى السطح.

— نبع ؟ لقد عاد ؟

— لقد وجدتِه من جديد.

كان قد ضمّ يديه ورفعهما مفتوحتين نحوي.

منذ ذلك الوقت وجدّي يحرس النبع والصحراء. في وقت أوّل، عندما اتضح أن أبي كان قد نسيني، كنت قد

جئت لملاقاة الشيخ العجوز من جديد. والآن ها أنا أجد النبع من جديد. ولكن من يقول أن المكان والنبع لم يكونا منسيين لو لم يكن جدي قد أخذ على عاتقه حراستهما ؟ فبدون إيمانه وثباته، كان النبع سيضيع في الرمال والصحراء خلال تيهها، الصحراء التي لم تكن غير صحراء. وأنا، هل كنت لأتعرّف على هذا المكان البعيد تماما وهذه الجغرافية المحرّرة والبعيدة الاحتمال ؟

كان جدّي، وهو يحرس الصحراء والنبع يحرسنا. كان يحرس العالم، عالم أحرسه أنا كذلك. وسيأتي ربما يوم أين يتوقف هذا الغدوّ والرّواح الكبير للغرباء. ينبغي أن نتمنى جميعا ذلك، عندها سننتهي بالعثور على أنفسنا في المكان الذي كنا نتواجد فيه. لن أكون بحاجة أكثر من الآخرين لمعرفة إن كنت أنا ذاتي هنا أو في مكان آخر. لن يرفض أي مكان أن ينتمي إليّ، ولن يعيش أيّ شخص في بلد مستعار. لن نذهب للصحراء : ستمُد لنا، بحفاوتها، عُري يدها المفتوحة.

وستكون الأرض المُعادة إلى حالتها الأولى، لأول قادم.

ها هي الحديقة خالية مرة واحدة، والعالم خال تماما. لا وجود إلا للشمس، فهي وحدها تملأ الدنيا كلها. المهم أن لا تأتي أي كلمة فتعكر هذا الصمت الجميل ! أما أنا، إن تكلمت فلن يسمعني أحد غير نفسي. السعادة هي هذه الدقيقة التي لا تمضي. شيء يكون ببساطة. أنا كذلك، لا أمرّ أبدا. هل قلت هذه الدقيقة ؟ ولكن سرعان ما حدث ما لم يكن في الحسبان : لقد امتلأ الفراغ. من دون سابق إنذار ومن غير أن نستطيع فعل أي شيء. ظللت بكمأء تماما جرّاء ذلك. إنها سعادة أخرى من نوع آخر. لو لم يحدث لي كل ذلك، أنا أيضا، لكنت قد أصبْت بالغيرة من ذلك.

ها هو الحال في كل صباح. ففي الصباح نستقبل السعادة التي نستطيع أن نرغب فيها أكثر، وهذا ما لا يملكه القلب. كل شجرة تلمع بنور داخلي.

ولكن عصفورا يشتكي. لا يوجد غيره. كان يبدو كأنه ينادي بصوته الصغير : "أبي. أبي." ويواصل مطالبا. أنا أسمعه. وهذه الشمس وهذه الحديقة، كأنها لاتهمه أبدا، رغم ما فيها من جمال ومن هدوء. إنه لا يعرف غير أن ينادي : "أبي. أبي." هل يحدث أن يتعب أو أن يغيّر الأسطوانة ؟ لحد الساعة فهو ليس أكثر من هذا الصوت.

لا وجود لأيّ جواب. لا جواب عندنا أبدا لأيّ شيء. لا توجد إلّا الأسئلة.

سيظل يتوسل هكذا طول اليوم. أنا متأكدة من ذلك. الحديقة هي الأخرى تستمع والأشجار كذلك. الأرجوحة تستمع والأزهار والبيت كذلك. وربما حتى السماء هناك في الأعلى. ولكن الناس ؟ أين هم، يا إلهي ؟ كل واحد بعيد جدّا عن الآخر. قامت غيمة بالتهام الشمس وألقت علينا الظل. وامتدّ الحزن، لأنها ساعته، إلى كلّ شيء.

ومع ذلك، وبدون مجازفة كبيرة، تتحرك الأوراق وتحاول قدر المستطاع أن تهزّ هذا الظل. وتتوصّل، الخبيثة، إلى ذلك، وتعود الشمس للظهور من جديد أكثر إشعاعا وأكثر سرورا. ولكنها لا تملك إلا أن تمضي، لأن الغيوم سرعان ما تعود لها الغلبة من جديد، هذه الغيوم التي لا تملك غير أن تمضي بدورها وتتوالى. لا انتصار لا لهذا الطرف ولا لذاك. أما الأشياء على الأرض، أثناء هذا الوقت، فهي لا تبحث على ما يبدو إلا عن الهروب دون أن تعرف أي

طريق تسلك. قد نقول لها : "ينبغي أن لا تضطربي، لا يوجد أي سبب لذلك." ولكن حتى تسمعك، ينبغي مرة أخرى أن تكون لها آذان.

بين الأعلى والأسفل، اندمجت أنا بدوري في اللعبة، فقلت :

— أبي.

ومرة أخرى :

— أبي. أبي.

وأحسست أني زائدة، وأن هذا كل ما أجنيه. وشعرت أني سأكون كذلك في كل مكان. وينبغي عليّ، في كل مكان، أن أتخلّى عن مكاني لأذهب إلى مكان آخر. وبداية ينبغي عليّ أن أغادر هذه الشجرة. قلت : "أغادرها، أجل." ولكن ذلك لن يساعدني في شيء، وأنا التي لا أقدر حتى على تحريك ذراع أو رجل، أو حتى أن أبكي. أعتقد أنه ليس بوسعي، وهذه العَبَرات التي تأبى النزول تخنقني، أن أنتظر طويلا لأموت. لو كانت تستطيع أن تصعد وتأخذني. سأتعزّى بأن أضمّ نفسي بذراعيّ شخصيا. سيأتي فهو حكيم. حكيم. حكيم.

كلا، ستأتي هي. نوع من الفرحة. فرحة كاملة تماما، وسأبقى مُتعلّقة جيدا بشجرتي. وأعِدُ : "سأقطف أزهارا لغرفتك، يا أمي." مازالت الغيوم تمرّ وتنفجر الشمس في

وجه كل شيء، ما يعيد البسمة لكل واحدة. ولكنّ ما يزعجني، هو أن ألمحها من خلال وشاح من ماء.

إنها الفرحة تبكي مع نورها وتبتسم لهذا اليوم من أوت، يوم مَخيط بسابقه يمضي وهو يجهل بدايته ونهايته. نستطيع أن ننام ما طاب لنا ذلك وأن نستيقظ ونبحث عن الخياطة، لن نجدها أبدا : إنها سرّ محفوظ جيدا. ينبغي إذن سؤال الشمس عما تفعل بهذه الليالي التي تؤجلها إلى الغد وتنتهي بنسيانها. إنها تحتفظ بها لنا لفصل الشتاء. هو ذاك. فقد بدأ ريش الغبيراوات يتساقط بعد أن أصبحت عناقيد ثمارها أكثر احمرارا وذهبُ أوراقها باهتا أكثر. فهي ما أن تتحسّس نسمات الخريف حتى تفقد صوابها. وها هي كالثملة، أو كالمعتوهة، مرتدية زرقة السماء أكثر من أي شيء آخر.

هناك قنفذ يسكن في حديقتنا، وهو صديق حميم لنا. وبما أننا غالبا ما نأكل في الخارج، فهو يأتي ليلف حول الطاولة. وفي المرة الأخيرة، أعطيناه عجائن "السباغيتي". فاستلذها كثيرا ولكننا لم نره بعد ذلك أبدا. إنه بلا شك ينام في مكان ما تحت طبقة من الأوراق الميتة، معتقدا بدوره أن الخريف قد أقبل. وإن استمر الجو جميلا فترة أخرى فسيكون قد تخلى عنّا في وقت مبكر جدا.

إنه البيت، بخضرة الأوراق والماء، الذي يحلم في وضح النهار لأنه يمر بفترة يعرف فيها سعادته. وأنا من شجرتي

أشاهد ذلك. أشاهد منحدريْ السقف مثل ذراعين متكاتفين فوق الرأس. وأما تحتهما فهرير، وزرقة السماء أصبحت أكثر فأكثر بياضا. عن قريب لن يبقى أي شيء أبيض بهذا الشكل. وفي الوقت ذاته لن يصبح أي شيء متألقا كالحديقة التي تحيط بها الغابة. فلا وجود لأحمرَ، مع عناقيد الغبيراوات، غير صيحات الزرازير. فهذا فصل الزرازير أيضا. فهي تصرخ وهي منطلقة كسهام مرعبة، لتذهب وتنغرس في مكان ما، لا ندري أين، في قلب الصباح تماما. ولا نرى منها سوى الخط الذي تخلفه في الهواء. لا بد أنها تتقاتل في هذه اللعبة، وتتحطم هي وصيحاتها على هذا القلب عندما تبلغه. ربما كانت تلك قمة متعتها.

لم يبق لي سوى أن أتمنى أن تكون أمي سعيدة، مثل هذه الأزهار المتيّمة أمام الشمس، دائما ملتفتة نحوها. أوليس يحبها أبي ؟ إذن فهو شمسها. وهي، لقد سمعتها أكثر من مرّة تقول له : "كم أحبك. كم أحبك." هذه الكلمات صلاة في الفم والعينين، إنها تأخذ النار من شمسها وتغدو هي ذاتها شمسا تنير كل شيء حولها، أمٌّ لم أعد أعرفها.

ولكنها تكفّ عن أن تكون هذه الشمس بمجرد أن يذهب، وأن يغادرنا. أبٌ مكره دائما على الذهاب. في الحقيقة، نتوقف نحن الاثنتين عن أن نكون شموسا أو ملكات. ولا يبقى منا سوى ظلين. لذا، آتي أنا لأختبئ في

هذه الشجرة. ولكنها هي ؟ مثلما أعرفها فهي لا تجد مكانا تحبس نفسها فيه غير غرفة حمّامنا الكائنة في الدهليز. تقضي هناك ساعات كالشبح لا تحتمل أي صحبة. وكل ما تفعله هناك، لا نعلمه.

في بعض الأحيان، يمتلئ العالم بالفظائع، دون أن ننتبه لذلك. من تلك الأنواع التي لا إسم لها أو التي نجهل عنها حتى الإسم. فجأة حلّ الصمت في كل الحديقة. ولم نعد نسمع حتى همسة صغيرة لورقة. صمت ثقيل جدّا لدرجة أني لم أعد أسمع نفسي أو أفكر أو أتكلّم.

هناك شيء ما سيحدث، شيء ما سيندفع. وأنا في مكاني أنتظر. فعندما يتعطل جهاز التلفزة في وسط العرض، نواصل النظر رغم أنه لا يوجد غير ثقب أسود.

ثم يعود الجهاز للاشتعال، وتعود له الحياة، وتعود معها الصور.

لم تعد للصمت كلمة، هنا عن كثب كما في البعد هناك. وعاد كل ما نحبّه، وكل ما يحيى، ولم يعد شيء يزعج. ولكن لو كنا نشك في ذلك، فنحن نعرف الآن ما يخفي العالم وراءه. نعرف بما نحن محاطون : أشياء خطيرة ومجنونة والتي من المحتمل أنها قد جعلتنا تحت نظرها.

وهذه التي تراقبني في هذه الدقيقة، إننا ندرك من هيئتها أنها ليست من تلك المجنونة. تبدو عليها الطيبة، إن فكرنا

أن نلقي عليها نظرة، أو فكّرنا أن نلقي عليها نظرة حقيقية، فلأغلبها وجها جميلا.

وقد كنّا، أنا وأبي، نتحدث عن ذلك قبل أن يعود للذهاب من جديد.

— لأنه جميل، فنحن ندعو هذا متوسّطا، قال. متوسّط البحر الحلو، الحلو المرّ، البحر الأم.

وضحك قائلا :

— البحر المرّ !

أنا مولعة جدّا بهذه الطريقة في الكلام، إنها تعيد لي الحياة. يا إلهي، يبدو لي أني أسمع هذه الكلمات تخرج منّي.

ها قد عادت الزرازير الشيطانية إلى إطلاق سهامها. أيّ مجزرة أخرى ستكون ! عجت رجلاي المعلقتان منذ وقت طويل على غصنهما، بما يشبه دبيب النمل. ينبغي عليّ أن أنزل وأن أرقص حتى أنشطهما. فلن تتأخر القطة عن المجيء بمجرد أن تراني ألمس الأرض، وستقفز إلى عنقي.

تفاديا لوقوع رجليّ الراقدتين وقوعا عنيفا على الأرض، نزلت بهدوء. وماذا تلقيت في الساقين : القطّة. رغم أني كنت أنتظر ذلك، ولكنها تملك مهارة المفاجأة في كل مرّة. وعليه فقد انتصبت أمامها تمثالا راقصا، قدمٌ على الأرض، والأخرى مرفوعة، والذراعان مقوّستان فوق الرأس.

حملقتْ فيّ قطتي تريد فهم ما يحدث. وقفتْ بدورها على قدميها الخلفيتين، أو حاولت فعل ذلك. لم تتمكن من ذلك؟ حسنا ! اكتفت بالقفز في مكانها. وفي تلك اللحظة، قفز التمثال، الذي هو أنا، إلى ما وراء الهاوية الخفية التي تصوّر أنها انفتحت عند قدميه، وذهب في دورات متواترة، والجسم مرفوع بحالة الغبطة التي تحمل الراقصات. وكذلك فعلت قطتي، اجري على أن أجري وراءك، في كل الاتجاهات، وانتشرت عبر الحديقة. وتمزّق عصفور وانتثر جناحاه وريشه. هل هي المذنبة ؟ فبعطفة بعد عطفة بين الأشرطة المسطحة، وبنطّة واحدة، اندفعت داخل البيت.

وصلتُ وراءها، وناديت :

— أمي، أمي، أين أنت ؟

لكم يسود الظلام في الداخل ! وكل النور، نورنا نحن البشر ونور الأشياء كان قد ذهب إلى الخارج، إلى الشمس، توجّهت مغمضة العينين. كنت أعتقد أني، بهذه الطريقة، سأسقط بين أحضان أمي، أو بين أحضان أبي. من يدري ؟

تقدمت، ويداي ممدودتان. وجاءت قوة أبي أمامي لملاقاتي – أحسست بذلك. فهو سيعرفني حتى في الليل الأكثر حلكة. وكثيرا ما حملني في عينيه لتشتعل فيهما صورتي مثل الشمعة العسلية. لن أسقط في غير حبّهما. وسألتُ :

— أين أنت يا أمي ؟

وسألتُ :

— أبي، هل أنت هنا ؟

كلماتٌ يمكن أن تكون مني أو من أيّ شيء من الأشياء أو من الأثاث الحاضر، وحتى من الهواء بينها، وحتى من الجدران.

لم أعد بحاجة للانطلاق في بعثات بعيدة كي أعثر عليه. فالرابطة لم تنفك أبدا.

غريبة الثلج و الرمال

في فجر أبدي من صيف بلاد الشمال، كانت الصغيرة ليلي بال تجثم على غصن هذه الشجرة أو تلك من أشجار حديقتها، وتعيد صياغة العالم وفق مشيئتها.
ومن أشجار الصنوبر المتثلجة إلى الكثبان الرملية اللامتناهية، ومن مواجهة عرفين تقليديين، ومعارضة عالمين خياليين، كانت تبني عالما سحريا بشعائره وأسراره لطفولة وحيدة، وتختزل بطريقتها الخاصة الألم والفراق.

ولد الروائي والشاعر محمد ديب سنة 1920 في تلمسان بالجزائر، تلقّى تعليمه الابتدائي والثانوي بمسقط رأسه ثم تابع دراسته بالمغرب. اشتغل بعدّة مجالات منها المحاسبة، الصحافة والتعليم حيث عيّن أستاذا بجامعة كاليفورنيا والسوربون.
يعتبر محمد ديب أحد أعمدة الأدب الجزائري وقد عُرف بدايةً بثلاثيته الشهيرة "الدّار لَكْبيره" (1952)، "الحريق" (1954)، "المِنْسَجْ" (1957). صدر له أكثر من ثلاثين عملا من روايات، قصص قصيرة، قصص للأطفال وأعمال مسرحية.
كان محمد ديب أوّل كاتب مغاربي تحصل على جائزة الفرنكوفونية من الأكاديمية الفرنسية عام 1994 تتويها بأعماله السردية والشعرية كما تحصّل سنة 1989 على جائزة "ملارمي" عن مجموعته الشعرية "الطفل-الجاز".

توفي محمد ديب في 2 ماي 2003.

ترجمة : عبد الرزّاق عبيد

مكتبة نوميديا 192
Telegram@Numidia_Library

9 789947 872512